



# مدرسة أبي تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين

تأليف

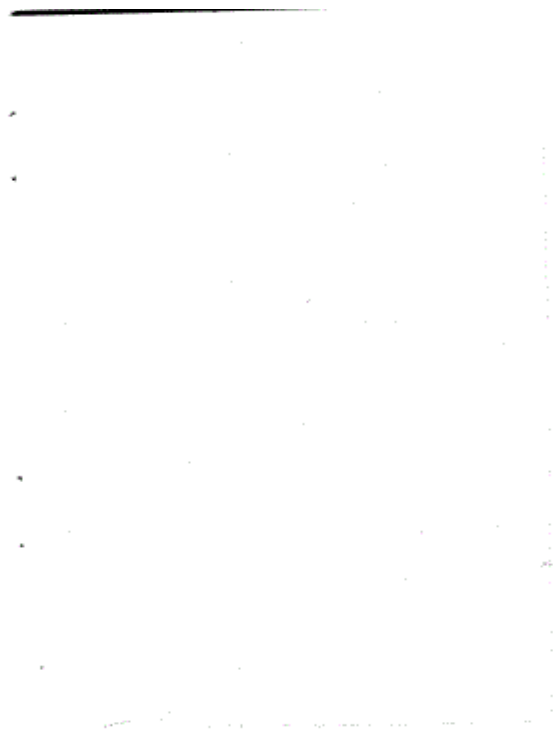
عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

يطلب من الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها: علي يوسف سليمان  
شارع المنشأة رقم ١ - حي الدقي - القاهرة



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ما قدر كان ، وما لم يقدر لم يكن ، والعلاء والسلام على  
رسوله محمد المصطفى من العرب جميع الأمم .

وبعد : فهذا عصر من عصور الأدب العربي ، أردت أن أضع فيه  
كتاباً بهذا الاسم ( مدرسة أبي تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين )  
على نحو ما اخترت من الأسماء للعصور الأدبية السابقة على هذا العصر  
إذ كان كل اسم منها يشعر بجزء عصره وطابعه ، ويشير إلى الأساس  
الذي ستقوم عليه دراسته ، ليكون نهجاً جديداً في تقسيم عصور  
الأدب العربي يقوم على أساس طابع كل عصر وميزته ، لا على ما جرى  
عليه مؤرخو الأدب العربي من مراعاة الأحداث التاريخية أو السياسية  
في تقسيم عصوره فاستقامت لي بهذا دراسة أربعة عصور بهذه الأسماء :

( ١ ) القمعة الأدبية قبل الإسلام .

( ٢ ) الإصلاح الإسلامي في أدب صدر الإسلام .

( ٣ ) الرجعية الأدبية في العصر المرواني .

( ٤ ) الثورة الأدبية لقدامى المولدين .

ثم شرعت في دراسة عصر هذا الكتاب ( مدرسة أبي تمام بين  
قدامى المولدين والمتأخرين ) وأنا لا أزال أشغل بالتدريس في

الجامع الأحمدي ، وكان من بين ما أدرسه فيه تاريخ الأدب العربي ، ولم أكد أبدأ فيه حتى نقلت إلى كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر ، فتدققت بهذا أكبر أمانة لي ، وهي الانصال ببحالات العلم الواسعة في القاهرة ، لأكون أقدر على تأدية رسائلي الإصلاحية .

فكان لهذا أثره في تغيير مجرى أفكاري ، وفي الانصراف عن إتمام هذه السلسلة في تاريخ الأدب العربي إلى عصرنا الحديث ، كما كنت أقدره لما حين شرعت فيها ، لأني وجدت فيها في رسائلي الإصلاحية أهم منها فيها ، وأولى بالتقدم عليها ، فتمت في هذا ما مضت ، ووضعت فيه من السكتب ما وضعت ، ونشرت في الجرائد والقبالات من البحوث الدينية والعلمية والأدبية ما نشرت .

ثم عدت أخيرا إلى النظر فيما وضعته في تاريخ الأدب العربي من السلسلة السابقة ، فبذيت فيه بعض التهذيب ، ورأيت أن أقصر على ما كتبت في العصر الذي وصلت إليه ، وأن أجعله كتيباً صغيراً في ذيل السكتب التي وضعتها قبله ، لأرشد به إلى الأساس الذي يجب أن تقوم عليه دراسة عصره ، ولعل الله تعالى يهيئ لهذه السلسلة من ينهها بعدى ، ويجري فيها على نهجي إلى أن يصل إلى العصر الحديث الذي كنت أريد أن أختتمها به .

## مدرسة أبي تمام

### خصائص مدرسة أبي تمام :

عمل قدماء المولدين من الفرس على تقريب الشعر من لغة التخاطب ، وكان هذا بعد أن مضى على لغة التخاطب أكثر من قرن بعد ظهور الإسلام ، إذ اختلط العرب بعده بغيرهم من الشعوب ، وتأثرت لغة التخاطب بذلك أكبر تأثير ، فرأوا أن يدخل في الشعر من السهولة ما يذنيه من لغة التخاطب ، ورأوا أنه لا يصح أن يبقى في أقطابه القرينة على الناس بعد تغير ظروفهم وأحوالهم ، وهذا ما سميت به الثورة الأدبية لقدماء المولدين .

وكان لهذه الثورة مناعضون يتعصبون لقديم الشعر ، ويرون أنه يجب أن يبقى في لغته الخاصة به ، وإن بعد بها عن لغة التخاطب وإن صار غير مفهوم إلا لعلماء الأدب الذين يعرفون دقائق اللغة القديمة للعرب ، ولكنهم لم يقفوا على معاهدة القائلين بهذه الثورة من أمثال أبي العتاهية وشاربن برد ، إلى أن ظهر أبو تمام في بيئة عربية خالصة من بلاد الشام ، فتأثر بنشأته فيها ، ومهلل أن يكون للشعر لغة الخاصة به ، لنقى له منزلة الرفيعة في الأدب ، ولا يتيسر إلا لمن يعلو بنفسه إلى هذه المنزلة الرفيعة ؛ حتى لا يكون في متناول كل من هب ودب ، وحتى يستأثر به خاصة الناس دون عامتهم .

وكان هذا مما دعاه إلى اختيار ما اختاره في كتابه (ديوان الحاسة) من أشعار فحول الشعراء الجاهليين والقبضريين والإسلاميين ، ليحفظها ويضمن عليها من يريد قرطش الشعر ، ويجري على طريقتها في إثبات اللفظ القسّم ، والمعنى الذي يعلو على فهم جمهور الناس .

ثم إنه لم يكتف هذا في إبعاد الشعر عن لغة الشياطين ، بل أضاف إليه أمرا جديدا يجعله أدخل في باب الصناعة الشعرية ، من الإكثار فيه من الحسنات البديعية ، وإخضاعها لما إلى الحد الذي تغلف فيه على أسلوب الشعر ، فتجعل منه أسلوبا بديعيا يؤثر فيه اللفظ على المعنى وتبعد عن أن يكون له في الناس رسالة إصلاحية .

وكان لهذه المدرسة شعراء شايعوا فيها أيا تام ، وتاصروه عليها في حياته وبعد وفاته ، ومن أشهر من شايعه فيها تلميذه البحري ، وابن المعتز ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعري ، وغيرهم حمل على الرجوع بالشعر إلى لغته الخاصة به وإن حمل أبو العلاء على أن يكون لشعره رسالة إصلاحية أيضا ، ولكنه جنى عليها بوضعها في ذلك الإطار الذي يعد بها عن العامة ، فلم يكن لها أثرها بينهم ، على ما كان فيها من قوة وبيل .

وكان أكثر الذين شايعوا مدرسة أبي تام من عناصر عربية صميمية ، مما يدل على أنه كان لعنصريتهم أثرها في متابعة هذه المدرسة ، وكذلك يلاحظ أن هذه المدرسة - ولاسيما هذه الثلاثة أيا تام والبحري والمتنبي - هي التي زودت علوم البلاغة بأكثر شواهد الشعرية ، فلا نجد تغير الثلاثة من الشعراء الذين سيعوم

مثل ما لهم من هذه الشواهد ، لأنهم حيناً قصدوا إلى الرجوع  
بالشعر إلى أسلوبه القديم استعانوا في ذلك بوازمه من فنون البلاغة  
حتى تراءت في أشعارهم تلك تراحم به أشعار من قبلهم ، ولأمر ما  
عنى علماء الأدب هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وشغلوا بدراسة أشعارهم  
وبالموازنة بينهم ووضعوا في ذلك من الكتب ما لم ينعوه في غيرهم  
لأنهم وجدوا في أشعارهم بينهم من فنون البلاغة ، ووجدوا فيها ما  
يساعدهم على تدوينها وتوسيعها ، وعلى أن يصلوا فيها إلى الحد الذي  
تكللت فيه وانقسمت إلى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديح .

وبهذا كله ساء لي أن أجعل لهذه المدرسة عصراً من عصور  
تاريخ الأدب العربي ، يتميز عن غيره من العصور بهذه الميزة التي  
امتازت بها ، والتي كان أفضل فيها لزميتها الأول - أي تمام -  
لا لحدث من الأحداث التاريخية أو السياسية .

ولا بد لي مع هذا أن أشير إلى أن القاضي المرحوم قد سبق  
إلى شيء قريب من هذا في أمر أبي تمام ، ليكون لي سنداً فيما أراه  
من ذلك ، وله فيه كلام نفس أنقله هنا على طوله لنفسه ، وقد جاء  
في كتابه المشهور : ( الوساطة بين المتنبي وخصومه ) :

قال فيما كان من أمر الشعراء قبل أبي تمام ، وهم الذين ، سميتهم  
قدماي المولدين :

كانت العرب ومن تبعها من السلف تجري على عادتها في تنظيم  
اللفظ وجمال المنطق ، لم تألف غيره ، ولم تأنس سواه ، وكان الشعر  
أحد متطلبها ، ومن حقه أن يقتصر بفضل تهذيب ، ويغرد بزيادة



عتابة ، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف إليها العمل والصنعة ، خرج كما تراء فحشا جزلا ، قويا متينا ، وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتباين فيه أحوالهم ، فيرى شعر أحدهم ، ويصعب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويوعر منطقي غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطباع وتركيب الخلق ، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودعامة الكلام بقدر دعامة الشفقة ، وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كثر اللفظ ، معقد الكلام ، وعمر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألقاظه في صوته وتقمته ، وفي جرسه ولحنه ، ومن شأن البدابة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي ﷺ ومن بدأ جفا به ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلي<sup>(١)</sup> أسلس من شعر القرظدي ورجز رؤبة وما إسلاميان ، للآزمة عدى الحاضرة وإعطائه الريف ، وبعد عن جلالة اليدو وجفاء الأعراب وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق النهم ، والقزل المتهالك ، فإن انتفت لك الدعامة والصلابة ، وانضاف الطبع إلى القزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها .

إلى أن قال :

فلما ضرب الإسلام بجرانه<sup>(٢)</sup> واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى ، ونشأ الخادب والطرف ،

(١) يعني عدى بن زيد العبدي من شعراء الحيرة

(٢) الجراح في الأصل مندم على البحر . يعني بسبب استئثار الإسلام . كما يقال ألي البحر جراح أي يرك .

اختر الناس من الكلام أليته وأسهله ، وعدوا إلى كل شيء ذي اسماء كثيرة فاختاروا أحسنها جمعا ، وألقبوا من القاب موقعا ، وإلى ما للعرب فيه لغات فأنصروا على أسلمها وأشرفها ، ونجوزوا الحد في طلب السبيل حتى تسمحوا ببعض اللعن ، وحتى خالطهم الرككة والعجمة ، وأنابهم على ذلك أين الحضارة ، وسبولة طباع الأخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم ، وانتشعت هذه السنة ، واحتضوا بشعرهم هذا المثال ، وترفقوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألفت ما صنع من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن شعفا ، فإذا أخذت عاد ذلك اللين صفاء ورواقا ، وصار ما تحيكنه ضعفا : رشاقة ولطفا .

ثم قال في أمر أبي تمام وهو بيت القصيد :

فإن رام أحدم الإغراب والافتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما رامه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكلف التفت وللتفت من التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع فية الخلاوة ، وزهاب الروني وإخلاق الله باجعة ، وربما كان ذلك سببا لطمس المعاسن ، كالذي نجد كثيرا في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين (١) الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على نوع في اللفظ وتبجح في غير موضع من شعره فقال :

فكأنما هي في السباع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب (٢)

(١) م المولودون .

(٢) المختار : المصنوع . ومعنى بأنها كواكب بمعنى من الأهمام .

فتعصف ما أمكن ، وتغافل في التعصب كيف قدر ، ثم لم يرض  
بذلك حتى أضاف إليه طاب البديع في فتحه من كل وجه ، وتوصل  
إليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخاتمتين حتى اجتنب المعاني للذامضة  
وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيما كل غث ثقیل ، وأرصد لها  
الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم  
يصل إلى القلب إلا بعد إنعاب الفكر ، وكبد الخاطر .

إلى أن قال :

ولست أقول هذا غفيا من أي تمام ، ولا تهجينا لشعره ،  
ولاعينية عليه الغيرة ، فكيف وأنا أدن بتفضيله وتقدمه ؟ وأنتحل  
موالاته وتعظيمه ، وأراء قبلة أصحاب المعاني ، وقنوة أهل البديع  
لكن ما سمعتني في أول هذه الرسالة أنه يحظر إلا اتباع الحق ، والحكم  
به لي أوعى ، وما عدوت في هذا الفصل قضية أي تمام ، ولا خرجت  
عن شرطه ، إذ يقول في يوسف السراج شاعر مصر في وقته :

قلو نيش المقابر عن زهير لعول باليكاء وبالتهيب (١)  
حق كانت معانيه عيالا على تفسير بقراط الطبيب (٢)  
وكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ربحان القلوب

(١) يعني زهير بن أبي سلمى ، والتهيب : رفع الصوت باليكاء ، وعول : رفع  
صوته باليكاء أيضا . وهو تأكيد

(٢) عيالا على تفسير بقراط : أي يعول في تفسيرها . وبقراط فيسوف  
يولاني وطيب .

تؤثر هل تعرف شعر أحوج إلى تفسير بفراط وتأويل أرسطو  
ليس من قوله :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها بجوهر الأشياء (١)  
وقوله :

يوم أفاض جوى أفاض تمسزياً  
فاض الموى بجوى حجاب الزبد (٢)  
ثم ساق كثيراً من أمثال ذلك في شعره ، ونجى لو حذف منه  
حتى يقطع ألسن العيب فيه .

فالفاض الجرجاني يذكر في هذا أن أبا تمام انفراد وحده من بين  
المحدثين بهذه الطريقة التي جعلتها مدرسة له ، وأنه عهد إليها تقليداً  
للأوائل من الشعراء ، وأنه خرج بهذا من سببه من المحدثين ؛  
ولكنه لا يجعل من هذا مدرسة شاعبه فيها من شاعبه من الشعراء في  
حياته وبعد ثمانه ، حتى غلبت على الشعر بعده ، وأخذت بهذا عصره  
من عصور تاريخ الأدب العربي ، وإنما لم ينتبه إلى هذا لأن دراسة  
تاريخ الأدب دراسة حديثة في عصرنا ، ولها فضل غنيبي إلى هذا  
جاء لم ينتبه له الفاضل الجرجاني .

(١) جهمية الأوصاف يعني الحر . وجهم من المتولة المائتين بنى الصفات .  
يشول إليها وقت حتى لا ترى توصف وخرجت عن أن تكون عرضاً أو  
جوهر . فهي جديرة بأن تكون أصل الموجودات كلها .  
(٢) هو من تعبئة له في مدح المؤمن وكان في غزو الروم . أفاض جوى :  
أمال بكثرة . وأخوي دنة التوب من عشق ونحوه . أفاض تمزياً أذهب سائراً  
والخبا المثل . يعني أن المروي غلب فيه على المثل .

على أني مع هذا أعيب على أبي تمام طريقته في ذلك من أولها إلى آخرها ، وأجعل من أخذه بتقليد الأوائل من الشعراء حركة رجعية في تاريخ الأدب العربي ، والفاضي الجرجاني يتألفني في كل هذا ويدن بتفضيل أبي تمام وتقديره ، ويحلل مولاته وتعظيمه ، ويجعله قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البدع ، ولا يعيب عليه إلا بعض أشعار سلك فيها سبيل القموش والتعقيد ، وتعي لوجدت من شعره حتى يقطع ألسنة اللبيب عنه : وإن كان كلامه قبل هذا يقيد أن ذلك طريقة عامة في شعره ، مما يجعل رأيه مضطربا فيه .

فليس لمدرسة أبي تمام بعد انخراطها عن طريق التجديد إلى طريق التقليد إلا محافظتها على قوة الشعر ونظامه ، وإلا أنها أنجبت شعراء يكادون يضاهون أوائل الشعراء في قوة الشعر ونظامه اللفظ ، من أمثال الجعفي وابن المعتز والمتني وأبي العلاء المعري ، وغيرهم من شعراء هذه المدرسة ، وأكثر شعراء كتاب اليتيمة للتمالي من شعرائها ، وهم أحسن من يمثلها من يريد دراسة تاريخها الأدبي ، واستيفاء مباحثها على نخط دراسي لغيرها من العصور الأدبية ، ومعرفة أثرها فيها من أولها إلى آخرها ، ويكتفي هذا أني بينت معالم الطريق لمراسمتها ، وأني ابتكرت الفكرة ، ومهدت لمن يمشي فيها إلى نهايتها .

ولا يخفى بعد هذا أن أليه إلى أن هذه المدرسة مكنت تؤدي رسالتها التقليدية ، وتحفظ للشعر قوته ونظامه لفظه ، إلى أن استعيجت الدولة الإسلامية في المشرق ، بعد سقوط الدولة العباسية

في أواسط القرن السابع الهجري ، إذ قامت فيه دول من الفتر والترك  
لا يحميا أمر اللغة العربية ، كما كان شأنها في عهد الدولة العباسية ،  
وقد أمكن الدولة العثمانية التركية بعد هذا أن تستولى على أكثر  
البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب ، وأن توحد بهذا الدولة  
اللغة الدولة بدل اللغة العربية ، وفرضت تعليمها في جميع بلادها حتى  
البلاد العربية ، فأخط شأن اللغة العربية بين الناطقين بها ، وأخط  
أدبها من شعر ونثر ، حتى طفت عليه الأساليب العامية ، وصار إلى  
غاية من الضعف والركاكة .

ولم يزل هذا شأنها إلى أن ظهرت النهضة الحديثة في عصرنا ،  
فأخذ المخلصون للغة العربية ينهضون بها وبآدابها ، ويعملون على أن  
يصلوها بشعرها ونثرها إلى ما كان له من القوة والفعالة ، على أن  
يتكون هذه في الحدود المقتولة ، ولا يصل إلى درجة تبعد عن لغة  
التخاطب ، كما كان شأن قديمي المولدين قبيل ظهور أبي تمام  
ومدرسته وقد وصلوا في هذا إلى غاية رفعت من شأن اللغة العربية ،  
وجعلتها تسير النهضة الحديثة في العلوم والآداب ، فجزاهم الله عنها  
أحسن ثواب .

#### أولى شعراء هذه المدرسة بالزراعة :

ولابد لي هنا من بيان الزعم الأول لهذه المدرسة ، لأنه قد  
يتوهم من نسبتها إلى أبي تمام أنه زعيمها الأول ، وهو رأي جهور  
من العلماء ينصب له على غير من الشعراء ، ولكنه لا يصلح عندى

٢  
الزعامه هذه المدرسة ، كما لم يصلح قبله امرؤ القيس وأضرابه  
الزعامه عصورهم عندى فى دراسى لها ، لأن للشعر رسالة يجب  
مراعاتها مع حسن القائله وجودة معانيه ، فيجب مراعاة الأمرين  
معاً فحين يستحق الزعامه على شعراء عصره ، وما لم يتوفر الشاعر  
فى هذه المدرسة مثل ما توفر لأبي العلاء المعرى ، فهو عندى أولى  
شعرائها بالزعامه .

## أبوتسام

نسبه ومولده :

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، من مله صليبة كما يقول صاحب كتاب الأتاني ، وقيل إنه كان منها بالولاء ، لأن أباه كان نصرانيا يسمى تدوس العطار ، وأصل تدوس يهودوس ، فغيرها من ادعى أنه من مله صليبة إلى أوس ، ولحق له نسب في مله ليس فيه إلا عشرة آباء ، مع أنه لا يصح أن يكون بينهما أقل من ستة عشر أباً . وعندي أن من يلقب عشرة آباء يمكنه أن يلقب الستة لباقية إذا كانت لازمة في ذلك على أن مثل عدد الآباء لا يمكن تقطع بشيء فيه ، لأن العمر يختلف طولاً وقصراً ، وقد يكون عمر عشرة آباء مثل عمر ستة عشر أباً ، وكذلك لزعة أبي تام إلى تقليد الشعراء الأوائل ، وإلى إعادة الشعر إلى قوته ونظامه فقط ، ترجح أنه كان عربياً صليبةً يعصب لقدم العرب ، ولو سلم أن أباه كان نصرانياً لم يقدح بشيء في أنه كان عربياً صليبةً ، لأن النصرانية كانت قد دعت في مله وليرها من قبائل العرب ، وكذلك لو سلم أن اسم أبيه كان تدوس أو يهودوس ، لأن من نصارى العرب من كان يؤثر هذه الأسماء الرومية بتأخير ديانته النصرانية .

وكان مولد أبي تسام سنة ١٩٠ • • • ٨٠٠ م بقربة من حمص



حينئذ يقال له جاسم ، وهي على مقربة من دمشق ، فكان مولده في بيئة عربية ترجع أيضا أنه كان عربيا لاروميا ، على أن الاختلاف في مثل هذا لا يهم بشيء في دراسة أي تسماء من الناحية الأدبية ، لأن البيئة العربية التي ولد فيها صهرت كل من كان بها ، حتى صار معظمهم لا يفرق عن بعض ، ونظني أن هذه الظاهرة بين عرب صليبة وعرب بالولاء كانت قد انخفضت في عصر أي تسماء أو كادت كما تخفى الآن في عصرنا ، لأنها لم يكن لها شأن إلا في عهد دولة بني أمية ، إذ كان العرب فيها ظاهرين على غيرهم ، فكان للتمييز بين النسب العربي الخالص وغيره شأنه بينهم ، أما بعد هذه الدولة فإن الأمر صار إلى العكس ، إذ ظهر غير العرب عليهم ، ولم يكن هناك معنى لذلك التعلل بالنسب بينهم ، ولا نقول بأن هذا عرب صليبة وذلك عرب بالولاء ، ولا لاختلاف من جهة في نسب أي تسماء ، إذ يمكن أنه كان عربيا ، ولا يعني أن كانت عربيته صليبة أو بالولاء ، كما لا يعني مثل هذا الآن .

#### نشأته وسيرته :

نشأ أبو تسماء بين أبوين فقيرين ، فلم يرع بعيشة الفقير بينهما ، بل ترح إلى مصر في طلب الرزق كما قيل وهو غلام صغير ، ولأهل الشام من قديم حبه في المسجدة طلباً للرزق ، لأن طبيعة بلادهم تطيق عنهم ، ولكن هجرة أي تسماء في هذه السن تدل على قوة نفسه وعلى جد همة قلبه ووصل إلى مصر أقام يسجدها خمس سنين ، ويقال إنه كان يسقي الماء بالجرة فيه ، وسواء صح هذا أو لم يصح فإن

إيقاره للأفame بالمسجد وهو مكان الدراسة العلمية والأدبية في ذلك الوقت يدل على ميله إليها ، إن لم يدل على اشتغاله بها فيه ، مع الاستعانة بسقى الماء بالخرقة فيه على الحصول على لقمة العيش ، ولولا هذا لاستغل بعمل خارج المسجد يدر عليه من الرزق أكثر مما يدر عليه ذلك العمل ، وإن أريج هذا أرن مقصده الأول من تلك الهجرة كان طلب العلم لا طلب الرزق على أنه لم يلبث أن أدرك أنه استبدل فقرًا بفقر ، وأنه جمع إلى هذا مناصب الاغتراب ، فعاد إلى الشام وأقام بدمشق ، وأخذ يظلم فيها العلم والأدب ، مما يدل على أن هذا هو الذي كان يهيم حين هاجر إلى مصر ، فتعلم العربية وآدابها ، وحفظ ما لا ينسى من الشعر القديم للشعراء الجاهليين والمفسرين والإسلاميين ، وبقال إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات ، ولا شك أن هذا كان له أثره فيما سبق من إيقار تقليد الشعر القديم ، وتكوينه لدرسته التي عملت على إعادة الشعر إلى قوته ونظامه لفظه ، بعد أن وصل في إيقار سهولة اللفظ إلى ما وصل إليه في عهد قدامى المولدين .

ثم أخذ نفسه بقرض الشعر على طريقتة التقليدية التي آثرها حتى بلغ فيها ، وصار فيها إماما يقضى به ، ويمدو الشعراء حذوء ، ثم عمد إلى التكتسب به كما كان أولئك الشعراء الذين قدام يتكسبون به ، فاشتهر أمره في الشعر ، وسار له صيت به ، وساعده على هذا أنه كان قصيحا حلوا الكلام ، وإن كان قيسه تنمة بسيرة لم يكن يحسن معها أن ينشد شعرا ، فكان يقول عنه غلام له قصيح يحسن إنشاد الشعر .

وكان إلى هذا حاضر الذهن ، سريع الجواب ، حتى إنه لم يعرف من أهل زمانه مثله في حدة الخاطر ، ولطافة الحس ، ومساكن عته في ذلك أنه مدح أحمد بن القنصم ، فقال في قصيدة يصف فيه إقدامه ومناجاة وحله وذكاه :

إقدام عمرو في مناجاة حاتم في حلم احلف في ذكاه (١)  
وكان الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي حاضراً ، فقال له : الأمير فوق من وصفت (٢) فأطرق أبو تمام فليست ثم قال :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروءاً في الندى والباس (٣)  
فألف قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والبراس (٤)  
فأخذوا القصيدة من يده فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من سرعته وفطنته ، ولما خرج أخيراً أبو يوسف ، وكان فيلسوف العرب : أن هذا الذي يموت شايأ ، لأن حديثه وذكاه يجعلان نفسه تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غده ، فصارت قرائته فيه ،

(١) يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي - وأما الثاني - والأخف بن قيس الراسي - وإياس بن معاوية القاضي الشنوري  
(٢) يعني أنه فوق عمرو ومن ذكر منه - هذا على منه - لأنه لم يكن منهم في صفاتهم ، ولولا الإدارة لم يكن له ذكر منهم ، وقد مات وماتوا قسي ذكره وبني بكرم  
(٣) شروء ذاهباً في الناس - والباس يفتت البأس وهو الشجاعة  
(٤) يعني قوله تعالى (مثل نور كمشكاة) الآية ، والمشكاة كل ما يوضع عليه البراس أي المصباح

ومات في حدود الأربعين سنة ، وكان هذا الفيلسوف يريد إخراجهم  
بذلك أمام الأمير ، ولعله كان يرى أنه لا يؤخذ عليه شيء فيه ، وأنه  
كان يلقى لعرب المثل بهم أنهم سبقوا إلى ما اشتهروا به من ذلك ،  
وأن الناس والشعراء يضربون المثل بهم فيه ، ولكنه رأى أن الأمير  
ربما تأخذه المنهجية ويتأثر بذلك الملق من ذلك الفيلسوف فتخلص  
بذلك من إخراجهم له .

ثم رأى أبو تمام بعد اشتغاله بالشعر في الشام أن يرحل إلى  
بغداد قاعدة الدولة ، لينتشر فيها ذكره أكثر مما انتشر ، لأنه يمكنه  
أن يتصل فيها بملوك الدولة وأمرائها ، فيرفع ذكره بمدحه لهم ،  
ويتال من صلاتهم ما لا يناله من غيرهم ، فمدح الواثق من الملوك ،  
ومدح أحمد بن المستنصر من الأمراء ، ومدح أحمد بن أبي داود وعبد  
ابن عبد الملك الرضا من الوزراء ، وطار له صيت بمدحه لهم ،  
وارتفع شأنه بما ناله من صلاتهم وجوائزهم .

وكان يركب بغداد المرة بعد المرة ، ويقصد كسار الولاية  
بأطراف المملكة ، فذهب إلى أرمينية وخراسان والحجاز وغيرها  
من الأقطار ، ومدح خالد بن يزيد وإلى خراسان ، ومدح عبد الرحمن  
ابن طاهر وإلى الحجاز ، ومدح غيرهما من الولاة ، ونال كثيراً من  
صلاتهم وجوائزهم .

وكان هذه الرحلات أثرها في شعره وأدبه ، ويقال إن الثلج  
حال بينه في همدان وبين المعنى في سفره ، فاضطر إلى البقاء فيها ،  
وعكف على خزائن الكتب بها ، وأخذ ينفق وقته في تصنيف ما تظهر  
له من المختارات ، مثل كتاب الحماة ، وكتاب غول الشعراء ،  
وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء .

ثم عاد إلى بغداد وقد ذاع صيته أكثر مما ذاع ، حتى صار أكبر شعراء عصره ، فرغب به أهل الدولة عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل يريد الموصل ، فأقام بها أقل من سنتين ، ثم مات بها في حدود الأربعين من عمره ، سنة ٢٢٦ هـ : ٨٤٥ م -

#### مؤثراته في الشعر :

يعد علماء الأدب أبا تمام رأس الطبقة الثالثة من الشعراء المحدثين ، ويجب أن يقصر هذا عندى على أثره من الشعراء المتكسبين ، ويبالغ بعض المصنفين له في مؤثراته في الشعر ، حتى يذكر أنه ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهما بالشعر في حياته ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، وهذا يؤخذ عندى عليه ولا يحسب له ، لأن للشعر رسالة أسمى من التكسب به .

وكان استثنائه بذلك في حياته سببا في كثرة حساده من الشعراء وغيرهم ، وفي اختلاف أصرم في شعره ، وتبعهم في هذا من أتى بعدهم ، فمنهم من يفرط في تعصب له حتى يفضل على كل سائق وخالف ، ومنهم من يفرط في تعصبه عليه ويأخذه بالردي من شعره ويؤخره عن غيره ، ومنهم من يتوسط في أمره كصاحب كتاب الأتاني ، وهو يرى أن السليم من شعره النادر شيء لا يعتاق به أحد ، وأن له مع هذا أشياء متوسطة ، وأشياء رديئة رذلة جدا .

وعندى أن أبا تمام كان يرى كما سبق أن له رسالة في الشعر العربي ، ليعيده إلى ما كان عليه من القوة وثقافة اللفظ عند الأوائل ،

وقد نجح في أداء رسالته في ذلك ، وأنشأ له فيها مدرسة جازاء فيها كثير من شعراء عصره ، وغلبت على من أتى بعده من الشعراء ، وهو في هذا رأس مدرسته وزعيمها الأول بلا منازع ، وقد فقل عن هذا من نظر إلى شعره من غير هذه الناحية ، فأدى إلى وقوع الخلاف فيه على نحو ما سبق ، وقد سبقه مسلم بن الوليد إلى شيء من هذا ، ولكنه لم يسرف مثل إسرائفه فيه ، بل كان يجري كثيراً مع طبعه ، ولا يتكلف من ذلك ما تكلفه أبو تمام بعده .

وكان أبو تمام قد ظهر بعد أن كتبت ترجمة علوم الأوائل وفلسفاتها ، ولاسيما فلسفة اليونان العالية الدقيقة ، فنظر فيها بإزاد من دقة فهمه ، وبعدة خاطره ، فجعل يغمس في شعره وراء الغائي الدقيقة ، والاستعارات والكتابات الخفية ، ولشدة تأثره بهذا في شعره قبل إنه حكيم وليس بشاعر ، كأن الحكمة لا يجمع الشعراء ، وكأن الشعر لا يجمع الحكمة ، وهذا خلاف الحديث المشهور « إن من الشعر لحكمة » .

ولم يقتصر أبو تمام على محاكاة الأوائل في معانيهم العالية وألفاظهم الفصيحة ، بل كان يخترع من ذلك ما لم يعهد مثله عند الأوائل ، ومن هذا قوله :

رفيق حوائش المسلم لو أن حله

بصكتفك ما هاربت أنه برد (١)

(١) البرد كساء مغلط وقى رواية - بكتفه ما غالبت

والقدماء لا يعرفون هذا الحلم الرقيق ، وإنما الحلم عديم وزن الجبال ،  
كما قال بعض الشعراء :

أحلامنا وزن الجبال وزانة ونحنا جنة إذا ما نجهل  
ولكن أيا تمام تأثر في ذلك بمضارة عصره ورقة الحلم عند رجائه ،  
ولكل عصر في ذلك حكمة (١)

وكذلك تأثر بعصره فيما كان يكثر منه في شعره من ضرب  
الحكم والأمثال ، ومن الاستدلال على الأمور بالأدلة العقابية ، فهذا  
بهذا طريق الحكم والأمثال لمن حدا فيها حذوه ، كالنظير والمعري  
وغيرهما من الشعراء الحكماء .

ولكن هذا التكلف الذي كان يعنى به في لفظه ومعناه كثيراً  
ما كان يؤدي به إلى التعقيد وسوء التأليف في شعره ، وإلى الخروج  
عن قواعد اللغة وتحميلها من هذا ما لا تليق به ، ومن هذا قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أنا

عنسه فلم يفتنون جسمه الكد (٢)

فأثار بهذا وبما كان يعتز به من الإستعارات البعيدة علماء الأدب  
عليه ، لأنه خرج به على مألوف القدماء ، بل أوقع نفسه بهذا في  
الخروج على مذهبه في العودة بالشعر إلى تقليد الشعراء الأوائل ،

(١) وأخذ عليه أيضاً أن البرد لا يوصف بالزفة ، وإنما يوصف بالثابة  
والصفانة ، وأكثر ما يكون أروانا غلظة .

(٢) جنة خان الزمان أنا عنه صفة لأخ . يعني أهدمه عنه . ويتخوى بنفسه ،  
والكد المرن الشديد .

حتى إن ابن الأعرابي أنشد شعراً له من ذلك ثم قال : إن كان هذا  
شعر فإني ظننته العرب بأبطل ، لأنه وأمثاله من علماء الأدب لا يجيزون  
لا في تمام وغيره من المحدثين أن ينصرفوا في اللغة أو ينقروا فيها ،  
وعندي أن هذا لا يصح منه على إطلاقه ، وإنما يمنع منه ما يؤدي  
إلى مثل ذلك التعقيد في شعر أبي تمام ، وما إلى هذا مما لا يستسيغه  
الذوق النقي .

وإذا كان أبو تمام قد وقع بذلك في تلك المأخذ فإنه مع هذا  
أجاد القول فيما تناوله من الشعر في المدح وغيره من الأغراض التي  
تناولها أمثاله من الشعراء المتكسبين ، وله في الرثاء قصائد كان  
بعض أسرار عصره يعني أن يموت ليرثه بمثلها ، وإذا كان قد وقع  
أحياناً في تلك المأخذ في بعض قصائده في المدح ونحوه ، فإن هذا  
لا ينقص من جودتها البلاغية في جعلها .

#### مختارات من شعره :

أشعار أبي تمام وقصائده مشهورة ، وله ديوان مطبوع يمكن  
الرجوع إليه من يريد ، ولعمركم البلاغة ولوح في الاستشهاد بها في  
علومها ، لأنها ماهرة بعلوم البلاغة التي أوجع بها في شعره .

ونختار منها هنا قصيدة له في رثاء محمد بن حميد الطائي ، وهي من  
أجود ما قيل في الرثاء ، حتى إن أبا دلف أنشدنا ثم قال : والله  
لو ددت أنها في ، فقال أبو تمام : بل أقدى الأمير بنفسه وأهل  
وأكون أنا القدم (١) ، فقال أبو دلف : إنه لم يموت من رثي بهذا

(١) يعني أن يموت قبله .



الشعر : وهي هذه القصيدة مع بعض الاختصار فيها :

كذا فليجل الغلظ وليدح الأمر  
فليس أعين لم يفض ماؤها عثر (١)  
توفيت الآمال بعد محو  
وأصبح في شغل عن السفر السفر (٢)  
وما كان إلا مال من قل ماله  
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخـر  
وما كان يدري عندي جود كفه  
إذا ما استبـلت أنه خلق العسر (٣)  
ألا في سبيل الله من عطفت له  
لجـاح سبيل الله وانتفر الثغر (٤)  
ففي كفا فاشت عيون قبيلة  
دما ضحكته عنه الأحاديث والذكر  
ففي دهره شطران فيا يشوبه  
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر  
ففي مات بين الطعن والضرب ميتة  
تقوم مقام النصـر إن فاته النصـر

(١) لم يفض بانقضاء لم يسل . ويصح أن يكون بالدين أي لم ينضب نقوده من كثرة الكفا .

(٢) السفر يفتح فتكون المسافرين .

(٣) القصدي الساقط استبـلت استعاره من استول الظرائير وانسكب .

(٤) انتفر الثغر افتح للسر وهو المكان الذي يخاف هجومه منه .

وما مات حتى مات مضرب سيفه  
من الضرب واعتلت عليه الفتاة السمر (١)  
وقد كان فوت الموت سهلا قرده  
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر (٢)  
ونفس تعاف الموت حتى كأنما  
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر (٣)  
فأثبت في مستنقع الموت رجله  
وقال لها : من تحت إصبعك العور  
غدا غدوة وأخذ تسج رداه  
فلم يتصرف إلا وأكفاته الأجر (٤)  
وهذا هو الرثاء الصادق لأمر مات مجادا في سبيل الله تعالى ،  
وبرز فيه مع هذا نقامة للفظه ، وجودة معانيه ، وحسن تشبيهاته  
واستعاراته ، مما جعل أبا دلف يثني أن يموت قبل أبي تمام  
ليرتبه بمثله .

#### وصية أبي تمام للبعثي :

ولا يد في آخر الكلام على أبي تمام من ذكر وصيته للبعثي ،  
لأن فيها ما يؤيد أنه لم يكن شاعرا غسبي ، وإنما كان شاعرا

(١) الفتاة الرماح ويصم فتاة.

(٢) الحفاظ الدفاع عن الحارم.

(٣) تعاف كفر ، يوم الروح يوم الحرب.

(٤) غدا غدوة : سار إلى القتال أول النهار.

صاحب مدرسة ، وله رسالة في الشعر أخذ بها تلميذه الأول ،  
ليتناه عنه إلى غيره من الشعراء ، وينهجوا على منوالها في الشعر ،  
وهنا هي ذي وصيته على لسان البحري :

قال البحري :

كنت في حداثنى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعي ،  
ولم أكن أفق على تسويل مأخذ ، ووجوه اقتضاها (١) حتى قصدت  
أبا تمام ، واقطعت إليه ، وانكلت في تعريفه عليه ، فكان أول  
ما قال لي :

يا أبا عباد (٢) تخير الأوثان وأنت قليل المعلوم ، صغر من  
العلوم (٣) واعلم أن العادة جرت في الأوثان أن يقصد الإنسان  
لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس عند  
أخذت حفظها من الراحة ، وقسعتها من النوم .

وإن أردت التشبيب فأجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقياً ،  
وأكثر فيه من بيان الصياغة ، وتوحيج الكتابة . وقلق الأشواق ،  
ولوعة الفراق ، فإذا أخذت في مدح سيد ذي أيد (٤) فأظهر مناقبه ،  
وأظهر مناسبه ، وابن معاله ، وشرق مقامه ، ونضيد المعاني ،  
واحتذر المجهول منها ، وإليك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ،  
ولكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

(١) الاقتضاب الانتال في التصديعة من السبب إلى المدح ونحو ذلك .

(٢) كنية البحري .

(٣) صغر حال .

(٤) نعم .

وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنت  
طريح القلب ، واجعل شهرتك لقول الشعر المريعة إلى حسن نظمه  
فإن الشهرة نعم للمعين .

وجهة الحال أن تعتبر شعرك بمسا سلف من شعر الماضين ، فما  
استحسنه القراء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .  
وهذه الوصية تدل على أن رسالته في الشعر كانت مقصورة على  
تجويد الألفاظ المعاني ، وعلى تقليد الماضين في ذلك ، وهو لا يبي  
بالماضين قداي المولدين قبله ، وإنما يبي بهم الشعراء الأوائل من  
الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، لأن رسالته في الشعر كانت  
كما سبق إعادة الشعر إلى أسلوبهم ، ليقتضى على ما أحدثه فيه قداي  
المولدين ، وإن كان لم ياتزم بذلك في شعره ، بل جاء بشعر لاهو إلى  
الشعراء الماضين ، ولاهو إلى قداي المولدين ، وإنما يجمعه بشعر  
الماضين علو أسلوبه ، ومجانيته لتسهيله ، وبعدد عن لغة التخاطب  
في عصره .

## البحري

### نسبه ومولده :

هو الوليد بن عبيد البحري ، ينسب إلى بحر ، وهي بطن من طيء ، وعلية قبيلة أبي تمام كما سبق ، ولكن البحري لم يختلف في نسبه إليها كما اختلف في أبي تمام ، فهو عربي صليبة بالاتفاق . وكان مولده بنتيج أو بقرية من قراها كما ولد أبو تمام أيضا ، وكان لهذا وذلك أثره في تأثره بدرسته ، إلى ما يأتي من العوامل التي جعلته يتأثر بها أيضا ، وجعلته التلميذ الأول لهذه المدرسة .

### نشأته وسيرته :

نشأ البحري في بلدة فقرا كما نشأ أبو تمام ، ولكنه لم يكن له همة مثل همة محفزه إلى طلب الغنى بالمجربة من قرينه إلى مصر أو غيرها كما هاجر قبله ، بل قنع في قرينه راضيا بقره ، ثم أخذ يقول الشعر بسيلفته ، وبالحج به في غدواته وروحاته ، حتى إنه كان يدخل المسجد من باب ويخرج من باب آخر وهو يشتد الشعر في طريقه ، وقد يقف على حلقات المسجد فيلشده واقفا ، ثم يخرج من باب المسجد ويقف على بابة البعل والباذنتان ويمدحهم بشعره ولعله كان يستجديهم به على ما سيكون من شأنه بعد ، ولا بد أنه كان شعرا قريبا في لغته من أولئك العامة الذين يمدحهم به .

ثم على بقية من قيات بلده يقال لها علوة بنت زريقة ، فأخذ يشيب بها في شعره ، ففرق شعره شيئا بما رفق حبه لها من وجدانه . ورفق من شأن نفسه .

وكان لأبي تمام في ذلك الوقت مجلس أدبي بمصر من مدن الشام ، يجتمع إليه فيها شعراء تلك النواحي وينشدونه أشعارهم ، فقصده البحري ليشده شعره فيمن قصده من الشعراء ، فأعجب أبو تمام بشعره أكثر من غيره ، واستنفاذ عنده بعد انصراف الشعراء من مجلسه ، ثم قال له : أنت أحسن من أنشدني ، فحدثني عن حالك .

فشكا إليه البحري فقره وما هو فيه من سوء الحال ، فكتب له كتابا إلى أهل معرة النيمان يدينهم بأمره ، ويخبرهم بما ينتظر له من شأن في الشعر ، ويوصيهم به خيرا ، فذهب البحري إليهم بكتاب أبي تمام ، فلما قرؤوه أولوه عنايتهم ، وعملوا على تحسين حاله ، ففرضوا له أربعة آلاف درهم كل عام يستعين بها في أمره ، وترفع من نفسه ، فارتفع بذلك شعره .

وقد أمكنه هذا أن يحصل بأبي تمام ليأخذ الشعر عنه ، فانقطع إليه يسترشد به في الشعر ، ويمتدح حذوه فيه ، إلى أن تفرق في الشعر وتظهر أمره ، حتى كان أبو تمام يقول له : أنت والله يا بني أمير الشعراء غدا بعدى .

ثم فارق أبا تمام بعد أن أخذ عنه ما أخذ من الشعر ، وتصد بغداد قاعدة الدولة العباسية ، ليظهر أمره يمدح ملوكها وأمرائها

وزرائها أكثر مما ظهر ، ويعشى بهذا فبانجه نفسه أول أمره  
من اتخاذ الشعر وسيلة للكسب ، ويجرى أيضا على طريقة أستاذة  
أبي تمام في ذلك .

وكان حينه قد وصل بغداد قبل وصوله إليها ، فسرعان  
ما اتصل بالموكل العباسي ، ووزيره النصح بن خاقان ، فقرأه من  
مجلسهما ، وأعطاه عطايا جزيلة ، وكان له في مدحهما قصائد  
بديعة هي أجود شعره ، ومكث معهما يفسد على أحسن حال  
إلى أن تار المنتصر بن الموكل على أبيه ووزيره النصح وتمكن من  
قتلها ، وكان الجعفي في مجلسهما حين قتلها شاهد ماجرى لها ،  
فرق الموكل بقصيدة من أجود ما قيل في الرثاء ، وقد استطرد  
فيها إلى تشييع الجنائز عليه وعلى وزيره ، وإلى التفتيح على من  
دبر قتلها .

ولكنه لم يلبث أن غلبت فيه غريزة التكسب بالشعر على غريزة  
الوفاء ، فأنصل بالمنتصر بمدحه طمعا في جوائزه ، مع أنه لم يلبث في  
الملك إلا نحو ستة أشهر ، مما يدل على أن الجعفي لم يشكث إلا قليلا  
ثم انصل به ، وكان انتهاء ملك المنتصر بشيرة قامت عليه كما غام  
بشورته على أبيه ، وقد انتهت بقتله أيضا وقيام المستعين بالملك بعده ،  
فأخذ الجعفي يمدح للمستعين ويهجو المنتصر بمدح مدحه له ، وكذلك  
شأن كل شاعر يتكسب بالشعر ، لأنه لا يمدح عن صدق ، ولا يشي  
عن وفاء ، وكذلك شأن كل حكم يقوم بالغلبة دون اختيار الأمة ،  
فلا يجد ملوكه ووزرائه وأمرأؤه من مدحهم بالإخلاص ، ولا يجد

الشعر من يؤدي رسالته الصادقة بينهم ، ولو قام الحكم  
باختيار الأمة ولم يتم بالتغلب لاستقام أمره ، ولا استقام أمر  
الشعر فيه .

ولم يكن ينتظر من الجعري في نشأته السابقة إلا مثل هذا أو أكثر  
منه ، فقد بالغ في حب المال حتى باع فيه شعره لكل من يطلبه ،  
وحق تغلب فيه بين المدح والمجاء ولم يثبت فيهما على حال ، لضعف  
نفسه ، وقلة وقته ، فكان يمدح من يمدحهم من الملوك والأمراء  
والوزراء حين تقوم دولتهم ، فإذا ذهبت دولتهم انقلب عليهم  
فهباهم ، وتقرب بجائهم إلى من قام بعدهم ، حتى يقال إنه هباجتهم  
تقول أربعين بعد مدحه لهم ، وهذا له دلالة على فساد الدولة في عهده .  
وعلى سوء أثره في الشعراء الذين تلمذوا فيه .

وقد جمع الجعري من المال ما جمع ، ولكنه كان يخل به على  
نفسه وأهله ، فكان من أوسخ خلق الله نوباً وآله ، ومن أنظلم  
على كل شيء ، حتى إنه كان له أخ و غلام معه في داره . فكان  
يقبلهما جوعاً ، فإذا بلغ الجوع منهما أتياه يبكيان ، فيرى لهما شمن  
أقواتهما مضيقاً مقدراً . ثم يقول لهما : كلا أجاج الله أكبادكما .  
وأطال إجهادكما .

وكان له غلام رومي يسمى نسياً ، ولم يكن حسن الوجه ، ولكنه  
جعل باباً من أبواب الخيل على الناس . فكان يبيعه ويشتد أن  
يصيره إلى ملك بعض أهل المروءات . ومن يتفق عنده الأدب ،  
فإذا حصل في ملكه أخذ بشيب به ويتشوق إليه ويمدح مولاه حتى  
يبه له . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات فكنى الناس أمراً احتياله به



ولا بد أن هذا كان له أثره في وجوه الدولة بغداد . فضايقوا باليجتري وشاق بهم . ولم يجد إلا أن يترك بغداد ويرجع إلى بلده متج . فاقضى فيها أملاكا واسعة بما جمعه من المال في بغداد . وكان بها وال صغير بقدر شأنها بين البلاد ، فسكان يتردد إليه بسبب أملاكه ومعاملها ويخاطبه بالأمير تخلفا له ، ثم يدركه الأسف على ما صار إليه أمره في بلده بعد ما كان من شأنه في بغداد على عهد المتوكل . فيقول :

مضى جعفر والتج بين مرمل

وبين صبيغ بالدعاء مضرج (١)

أأطلب أنصارا على الدهر بعدما

توى منها في الزب أوسى وخزرجي (٢)

أولئك سادات الذين بغضاهم

تملت أفاويق الربيع المنجج (٣)

مضوا أما قعدا وخلقت بعدهم

أخاطب بالتأمر والى متجج (٤)

(١) جعفر اسم المتوكل ، ومرمل مطلق بالدم ، ومضرج مطلق بالدم أيضا .

(٢) يعني الأوس والخزرج من أهل المدينة أصداء التي صلى الله عليه وسلم استنارهم لأصداءه .

(٣) الأفاويق ما اجتمع من الماء في السحاب فهو يطرر ساعة بعد ساعة . استنارها لما ناله من غيرتهم . والمنجج الذي يكسو الأرض بسواد الزرع

(٤) أما قرأ أي متنازين .

وكان يختلف أحيانا إلى بغداد فيمدح أول الأمر فيها ويأخذ  
جوائزهم ثم يعود إلى منبج ، وقد قصدها مرة ورى فيها أبا عيسى  
ابن صاعد يأيات وجد فيها بعض حساده عليه مقالا ، فشنعوا عليه  
بأنه تنوي (١) ودارت مقالهم في الناس . وكانت العامة في ذلك  
الوقت غالبة على بغداد ، ثقافهم البحتري على نفسه . وأسرع  
بالخروج من بغداد إلى منبج . ولم يعد إلى بغداد بعد ذلك .  
وكانت وفاته عتيج سنة ٢٨٤ هـ : ٨٩٧ م

#### منازلته في الشعر :

أبو تمام والبحتري والمثنبي ثلاثة شعراء من المحدثين سارت  
بذكرهم الركايا ، وعنى علماء الأدب بالكلام عليهم والموازنة  
بينهم ، وتأليف السكتب في ذلك ، والبحتري عندهم هو الشاعر  
الطليوح ، أما أبو تمام والمثنبي فكانا من الشعراء الحسكا ،  
هم يعملون شعر البحتري من نوع شعر أبي نواس ، ويذهبون إلى  
أنه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحتري ، ولا يعد  
البحتري من هو أطبع منه على الشعر ، ولا أيدع منه في الخيال  
الشعري . لأنه كان لشأنه البدوية بعيدا في شعره عن مذاهب  
الخطريين وتذيقهم وفلسفتهم . فكان ينطق في شعره عن عاطفته  
لا عن عقله . ولا يجهد نفسه في اختراع معان دقيقة . أو ابتكار  
تشبيهات واستعارات جديدة . وإنما كان يقصد إلى العاني المطرقة

(١) يقول ياقوت الحموي كالفوس

فيظهرها في ثوب جميل من فصاحته وجزالة المطبوعة . فيجى شعره حسن الديباجة . صقيل اللفظ . سلس الأسلوب وبهذا يمتاز عند من يرى أن الشعر من وجى العاطفة على صاحبيه : أبي تمام والمثنبي .

والبحرئى عندى من أولئك الشعراء الذين عملوا على إحياء الشعر القديم ، وعلى إعادته إلى مآثنه وجزائنه القديمة . وبهذا يعد عندى من مدرسة أستاذه أبي تمام . بل البحرئى كان أكثر تقليدا للقدماء من أستاذه . لأنه لم يتأثر في شعره بما تأثر به من الفلسفة ونحوها . وينكر من سبق من علماء الأدب إلى رأيهم فيه أنه تأثر بأبي تمام إلى حد كبير . فأخذ كثير . من معانيه . وجاراه إلى حد ما في استعمال البدع وتدفيق المعاني وغيرهما من طريقته .

وقد كثرت الخلافات بين علماء الأدب في الموازنة بين أبي تمام والبحرئى . فكان لبحرئى أنصار يقدمونه على أبي تمام كما سبق حق لإهم يهتمون الشعر العربي بشعره ، وكان لأبي تمام أنصار يقدمونه على البحرئى . ويغضلون تديقه وتعمقه على سهولة البحرئى .

وكان البحرئى لا يجارى أنصاره في تعصبيه له على أستاذه أبي تمام . ويقول في ذلك : والله ما أكلت الخبز إلا به . ثم يقول في موازنة شعره بشعره قول منصف : إن جيد أبي تمام خير من جيدى . ووسطى خير من وسطى أبي تمام ورديته . وهذا وفاء لأستاذه محمد عليه ماسبق من قلة وفائه لأصحابه . وعلى أنه كان أكثر الشعراء

نقرأ بشعره . إذ كان يملأ في فخره به ويتشادق عند إنشاده .  
حتى عد من أبيض الناس إنشادا . لأنه كان يزاور عند إنشاده  
في مشيه مرة جانيا . ومرة القفري . ومرة رأسه مرة . ومنكبيه  
أخرى ويشير بكنه . ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنت والله  
ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا  
والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله .

ومما يمكن عنه في هذا أنه فعله مرة أمام المتوكل ، فعجبر منه ،  
وسلط عليه شاعرا كان في مجلسه و ففطع عليه شعره ، وارتحل شعرا  
هجاء به ، فخرج غاضبا إلى بعض أصحابه ، واستشاره في الخروج  
من بغداد بفكر إذن فهاه صاحبه وقال له : إن الملوك تزح بأعظم مما  
يجري لك . فسمع له واحتدل ما فعله المتوكل معه ، وأقام ببغداد على  
هذا الحال الذي لا يحسد عليه .

وقد تصرف البحتري في فنون الشعر الذي تصرف فيها الشعراء  
المفكسون ، فأجاد القول في هذه الفنون ماعدا الهجاء ، فإن أشعاره  
فيه لا تشاكل طبعه ، ولا تليق بمذهبه ، وتليق بركاكتها ونشأته  
ألفاظها عن قلة حفظه في الهجاء ، وذكر صاحب الأمانى أن ابنه أبا  
القوت أرجع السبب في هذا إلى أن أباه لما حضرته الوفاة دعا به  
وأمره أن يجمع كل شيء فله في الهجاء فيحرقه ، لأنه فله في وقت  
شيئ يفظه ، وربما يتاله منه سوء بعد موته ، فأحرقه كما أمره به .  
ثم استترك ما ذكره أبو القوت بأن ما بقى من هجاء أبيه إذا صح  
يدل على ما أحرق منه ، وأنه كان على شاكلته ، وعندى أن ضعف

أشعاره في الهجاء ترجع إلى ضعف نفسه ، لأن الهجاء يحتاج إلى نفس قوية لا تخاف الأذى ، ويؤيد هذا ما ذكره في دعوة ابنه إلى إحراقه غلوقه أن يصيبه سوء منه ، على أن ضعفه في الهجاء لا يضيره بشيء. لأن كثيراً من الشعراء كان يقتصر بعضهم لسانه عنه ، وكل ما ورد من هجاء الشعراء المجهالين لا خير في جوده ولا في رديته . هذا ولم يقتصر تقليد الجعري لأستاذه أبي تمام على الشعر ، بل كان يقلده أيضاً في التأليف ، ومن ذلك كتاب الحاسة للجعري ، وكتاب معاني الشعر له

#### مختارات من شعر :

قال يندح للتوكل ويذكر خروجه يوم التطر :  
أخلق هوى لك في الضلوع وأظهر  
وألام في كبد عليك وأعذر<sup>(١)</sup>  
وأراك خنت على النوى من لم يخن  
عبد الهوى وهجرت من لا يجر  
وطابت منك مودة لم أعطها  
إن العصى طالب لا يظفر<sup>(٢)</sup>  
هل دين علوة يستطاع فيقتضى  
أو ظم علوة يستليق فيقتصر<sup>(٣)</sup>

(١) كبد : جوف شدة

(٢) العصى الذي وقع في الماء والتمسب من الجير

(٣) يقتصر : ينتج

يغضاء بعطيك الغضيب قوامها  
ويريك عيشيا الغزال الأحور(١)

إلى أن يقول :

إلى وإن جانت بعض بطائي وتوهم الراشون أنى مقصر(٢)  
أشوقنى سحر العيون البعلى وبروقى ورد الخدود الأحمر  
الله مكن للخليفة جعفر ملكا يحسنه الخليفة جعفر  
نعمى من الله اصطفاة بغضائها وانه يزرق من يشاء ويقدر  
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر  
همت فواضلك البرية فائق فيها القل على التنى والمكتر  
فالبرصمت وأنت أفضل صائم ويسنة الله الرضية تنظر(٣)  
فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشر  
أظهرت عز الملك فيه يجعل لب يحاط الدين فيه وينصر(٤)  
خفتا الجبال تسير فيه وقد نددت عددا يسير بها العديد الأكثر  
فالخيل تعبر والقوارس تدعى والبيض تلعب والأسنة تزهر(٥)  
والأرض خاشعة تيد بثقلها والجور معسكر الجوانب أغبر(٦)

(١) الذئب النمر النمل - والأحور الذي اندى بياض عينه وسوادها

(٢) بطائي تعطى وتفرغ فى البر

(٣) البر : القاطعة

(٤) جيش كثير العدد ، شب فى جلبة أى صياح لكثرة

(٥) البيض : السيوف والأسنة الزمان أو أطرافها

(٦) تيد : تتحرك وتضطرب

والشمس مائة نوبة بالضحى طورا وبظننا المعاجز الأكر (١)  
 حتى طاعت بضوء وجهك فأتهجت  
 تلك الدجى وأجاب ذلك العتير (٢)  
 وافتن قيك الناظرون فأصبح يومى إليك بها وعين تنظر (٣)  
 ذكروا بطلعتك التي لم تلوأ لأطلعت من العتوف وكبروا  
 حتى اتيت إلى المصلى لا يسأ نور الهدى يدعوك ويظهر  
 ومثيت مشبة عاشق متواضع لله لا يزعم ولا ينكر  
 فلو أن مشاقا تكلف فوق ما في وسعه لمشي إليك المنبر  
 أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المبين وتغير  
 إلى أن يقول في ختامها :  
 فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل ييب الذنوب لمن يشاء وبغفر (٤)  
 الله أعطاك المحبة في الوري وجباك بالفضل الذي لا ينكر  
 ولأت أملا لمعيون لديهم وأجل قدر في الصدور وأكر  
 وهو يبدأ في هذا مدحه بالنسب على عادة الأوائل من الشعراء  
 ثم يمضي في هذه المبالغات في مدح المتوكل ، ولم يكن فيه شيء من  
 تلك الأوصاف التي أضفها عليه ، وإنما كان ملكا جبارا مختصيا  
 لذلك من الأمة ، وفي عهده ابتداء انحطاط الدولة العباسية ، بما قضى

(١) مائة : مرقة

(٢) التهايت : زالت ، والدى : القلة ، والعتير : النيار

(٣) يومى : يوماً أي يشار

(٤) ييب الذنوب : يساع فيها ولا يؤخذ عليها

علوم الفلاسفة، وبما حجب من حرية الرأي، وبما دأب إليه من إضمار  
التقليد على الاجتهاد، وأكثر ديوانه مدائح من هذا الشكل، يتاجر  
فيها ولا يقصد وجه الحق

وقال في غلامه نسيم :

بأي أنت كيف أخلفت وعدى وتناقلت عن وفاة بهدى  
لم تجد مثل ما وجدت وما أنا صفت إن لم تجد مثل وجدى<sup>(١)</sup>  
رب يوم أظمت لك الفجر أوغبي في حسن وجهك رشدى  
حسن عيتك قبولى وثابا كرضائى وورد خديك وردى<sup>(٢)</sup>  
لا أرتنى الأيام ففدك ماعش ست ولا عرفتك ماعشت ففدى<sup>(٣)</sup>  
أعظم الرزم أن تقدم قبلى ومن لقين أن تؤخر بهدى<sup>(٤)</sup>  
حيدا أن تكون إلها لغبرى إذ تفردت بالموى فيك وجدى  
والنسب بالذكر من أقيح ما ظير في الشعر بعد الإسلام،  
لاستبحار المختارة بعده، والمختارة إذا استبحرت ونام فيها مثل  
أولئك الملوك، تركوها طليقة انتشر الفساد في الناس، ليكون لهم  
من مفاسدهم ما يحذرون عن مفاسد ملوكهم.

(١) لم تجد : من الوجد وهو الفدة

(٢) قبولى غرى أى يسكرنى مثلها والرضاب : الرقى الرخوف وفات المسك

(٣) دعا، بأن ينى كل منها الآخر ولا ينفذه

(٤) الرزم : الأسباب ، والذين أسلمه عين الببح وهو ناس الثمن



## ابن المعتز

نسبه ومولده :

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ،  
ينتمي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ،  
وكان مولده ببيقداق قبل مقتل جده المتوكل بأربعين يوما ، وكان  
ابنه المعتز حين قتل في حدود العشرين من عمره .

نشأته وسيرته :

نشأ عبد الله في رعاية أبيه وهو في حدود العشرين من عمره كما  
سبق ، إذ كان في حبس النهو والشرب والغناء ، ويقول من الشعر  
بعض مقطعات غنائية يغنيه فيها جواربه وتتماؤه من الخدين ، وهي  
عيشة لا يحمده عليها في قد يكون في يوم ما ملكا على المسلمين ، بل  
إنه لم يلبث إلا قليلا حتى تولى الملك بعد قتل أخيه المنتصر لتحو  
سنة أشهر مضت على قتله لأبيه ، فطوى بعد أن آل الملك إليه في تلك  
الحياة لللاعبة ، لأن أولئك الملوك لم ينصروا على شيء من الأمر بعد  
أن استبد بهم مواليهم من الترك ، وبعد أن هانت عليهم دماؤهم إلى  
تلك الحد ، ولهذا لم يلبثوا أن قتلوا المعتز أيضا ، وكان ابنه المعتز  
حين قتل في الثامنة أو التاسعة من عمره .

فلما قتل المعز ظلت أمه قبيصة بترية ابنه عداة ، وكانت رومية الأصل ، فأحضرت له كبار العلماء في العلوم الدينية والأدبية ، مثل أبي العباس البرد ، وأبي العباس نعلب ، وأجد بن سعيد الدمشقي الأديب المتفلسف ، وهو الذي عهد إليه تربيته من صغره ، وكان قد اختص به حتى كان يغضب إذا غم إليه غيره ، كما يغضب حين ضم إليه البلاذري للورخ .

ولم يلبث عبيد الله أن ظهرت براعته من صغره في الشعر وعلوم الأدب ، إذا ورت الشعر فبا ورتة عن أبيه ، وورث عنه أيضا حب اللهو والشرب والصيد ، وما إلى ذلك من ضروب اللهو ، وقد تأثر بما أصاب جده وأباه ، فرأى أن يتبع عن سياسة الدولة ، وأن يتطلع أملة من الملك ، وأن يشغل نفسه بذلك الحياء اللاهية ، وأن تكون صلاته بالملوك العباسيين صلة شاعر عالم أديب ، لاصلة أمير يتطلع إلى ما لهم من الملك .

فكان يمدح ملوك بني العباس كغيره من الشعراء ، ومن مدحه منهم المعتضد ، وكانت الدولة قد نهضت بعض النهوض في عهده ، حتى أمكنه أن يسكن القن التي كادت تعصف بالدولة ، وأن يجمع الذين يقومون فيها بالثورة بعد الثورة ، ولم يكن ما أصاب أباه وجده لينقذه في دولتهم ، بل كان يمدح ملوكها بإخلاص ، ويتعصب لهم على العلويين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالدولة منهم ، فكان يظعن عابم بشدة في شعره ، ويؤيد فيه حق العباسيين في الدولة دونهم ، ولم تكن هذه رسالة الشعر في ذلك القصاد ، بل

كانت رسالته أن يعمل على إصلاح تلك السياسة التي استبدت بالرعية ولم يجعل لها شأنًا في إختيار من يصلح لسياستها من العباسيين أو العلويين أو غيرهم .

ولم يكن ينتظر من ابن المعتز في تلك الحياة اللاهية إلا أن يضي في الشعر على ماضى غيره من الشعراء ، ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن حياته لم تكن مصروفة كلها في النهو ، بل كانت مقسمة بين اللهو والجد ، وكان في طسوه شاعرًا خليعًا قد فتن بجارية اسمها نشر ، وبغلام اسمه تشوان ، وله قبهما أشعار وأخبار لا داعي إلى ذكرها في سيرته هنا ، وكان في جده عالمًا أدبيًا له مؤلفاته الكثيرة بين علماء الأدب ، ويمكن في عظم مؤلفاته في ذلك أنه ينسب إليه اختراع علم البديع بكتابه الذي ألّفه باسم هذا العلم ، وله غيره من الكتب ، مثل الكتاب الزهر والرياض ، وكتاب مكائبات الإخوان بالشعر ، وكتاب الخوارج والعبيد ، وكتاب السرقات ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب الآداب ، وكتاب حلى الأخبار ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب الجامع في الغناء ، وهو من الكتب التي اعتمد عليها صاحب كتاب الألفاظ .

وكان إلى هذا حسن العلم بصناعة الموسيقى ، وله مذاهب ومجادلات مع علماء عصره في الغناء ، وكان يميل إلى التجديد فيمثل إبراهيم بن المهدي من العباسيين قبله ، فلا يرى بأسًا في أن يعدد الموسيقى أو الغنى إلى لحن قديم فيغير فيه بعض التغيير . فيلائم بين لحنه وحنجرتيه . وكان له أيضا مذهب عظيم في نقد الشعر يدل على

دقة نظره ولطف مأخذه إلى غير هذا مما يدل على أن حياته لم تكن  
كأيا معروفة في المهر.

وبناء الله أن تطرق السياسة باب ابن العزّ في آخر حياته .  
وأن يكون لها معه مأساة أشد من مأساة أبيه وجده . فيبقى جماعة  
من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب على خلق القنطرة بن المعتز .  
وكان صغير السن لا يصلح لذلك . على أن يولوا مكانه عبد الله بن  
العزّ . وهو معشكف في داره لا يطلب هذا منهم ، ففعلوا القنطرة  
وبأبوا عبد الله مكانه ، وكان من يفعلونه لا يقدر على مخالفتهم . كما  
كان من يولونه لا يقدر على مخالفتهم أيضا . فأقام عبيد الله في  
الملك يوما وليلة . ثم تجمع أصحاب القنطرة فأرهبوا أعوانه وشتوهم  
وأعادوا القنطرة إلى الملك . فاحتج عبد الله في دار بعض أصحابه  
فبحث عنه القنطرة حتى عثر عليه فيها ، فسلّمه إلى مؤنس الخادم  
ليقتله ، فقتله وسلّمه إلى أهله ليدفنوه ، وكان هذا سنة ٣٩٦ هـ :  
- ٩٠٨ م .

#### • نزله في الشعر :

كان ابن المعتز من الشعراء الطبعين الذين لا يتكلفون ولا  
يتعلمون إذا مضى على سجيته في التغزل ونحوه من ضرب لهو ، فإذا  
مضى في الرصف - وكان من أروع الشعراء فيه - تأثر بالبدع  
التي أتقن معرفته ونسب إليه اختراع علمه ، فأثّر فيه بالتشبيهات  
البدعية ، والاستعارات الجلية ، متأثرا بما كان يحيط به من مظاهر  
الجمال ومحاسن الطبيعة في بيئته المترفة ، وهو في هذا يقرب جدا من

مدرسة أبي تمام ، ولهذا كان من شعره ثروة ضخمة من الشواهد  
لعطاء البلاغة ، كما كان من شعر أبي تمام والبحرئى والثنيى من  
زعما هذه المدرسة .

وكان بعض علماء الأدب يظعن في شعره إرضاء للمقتدر ، فيعاطف  
بين الأدب والسياسة ، وهو ظعن غير برئ . كما ذكر صاحب الأغاني  
وقد ذهب في شعره مذهبا وسطا بين أنصاره وخصومه ، فذكر أنه  
إذا كانت فيه رقة للوكة وغزل لظرفة واهلهة المحدثين فان فيه أشياء  
كثيرة تمرى في أسلوب الفيدن ، وأخرى ظريفة من أشعار الملوك  
في جنس مالم يسليه ، ثم أرجع هذا إلى البيئة التي نشأ فيها ، وذكر  
أنه لم يكن له أن يشبه بفحول الجاهلية إذا وصف الصبوح (١) في  
عجس شكل ظريف ، بين تداعى وقيان ، وحل ميادين من النور  
والبنفسج والرجس ، وما إلى ذلك ، فيعدل عما يشبه من الكلام  
السهل الرقيق الذي يلهمه كل من حضر إلى جعد السلام ووحشية  
وإلى وصف البيد والمياهم والظلي والظلم والناقة والجل واللهو  
والفقار ونحو ذلك ، فإذا عدل عنه وأحسن لا يصح أن يقال له ميسر  
ولا أن يخط حقه كله إذا أحسن الكثير ، ونوسط في البعض ،  
وقصر في اليسير ، وهذا هو الحق عندى في أمره . وبه يكون قريباً  
من مدرسة أبي تمام في ناحية من شعره ، وقريباً من قداى المولدين  
في ناحية أخرى .

وقد تصرف ابن المعتز في كثير من فنون الشعر ، فعقله في اللدح

(١) شرب الخمر صبا

وإن كان قليلا فيه ، لأن مقامه في العباسيين كان يلو عنه ، وقال في  
التفرد وما إليه ، وقال في السياسة متأصراً للعباسيين على العلويين  
كما سبق .

وله في الشعر التعليمي منظومتان :

إحداهما في نظم سيرة المعتضد ، وفيها كثير من أمور الدولة ،  
ونظم الحكام ، إلى غير هذا من الفاسد التي قضى المعتضد عليها ،  
واستحق المدح عليها عنده .

والثانية في ذم الصبوح ، وفيها كثير من الظرف والمسامحة ،  
تخيل فيها صاحبها أنه أنكر عليه شرب الخمر في المساء ، فأخذ يحس له  
الصبوح على الفيق ، لأنه يظهر الشارب على ما في البساتين من جهال  
ثم يستلرد إلى وصف الرياض بالشبهات البديعة ، ومعانيه الشكرورة  
إلى غير هذا مما في هذه القعدة التي تشبه القصص التمثيلية في عصرنا .

مختارات من شعره :

قال يمدح بعض ملوك بني العباس ويصف قصراً بناءً :

سكنت أمير المؤمنين على الدهر

ولا زلت فينا باقياً واسع العمر

حلفت الثريا غير دار ومثل

فلا زال معموراً ويورك من قصر<sup>(١)</sup>

(١) الثريا : اسم القصر

فليس له فيما بين الناس مشبه  
 ولا ما يناء الجن في سائف الدهر<sup>(١)</sup>  
 وما زال برعاه الإمام برأيه  
 وبالعز والتقديم والنبى والأمر  
 فم لما في الحسن شيء يريد  
 لسان ولا قلب يقول ولا فكر  
 سيئ عليه من محاسن قصيره  
 مدائح ليست من كلام ولا شعر  
 يشير إلى رأى مصيب وحكمة  
 وجوده لا نفاق بالبيض والصفير<sup>(٢)</sup>  
 جنان وأشجار تلاقى قصورها  
 فأورقن بالأثمار والورق الخضر  
 ترى الطير في أغصانها مواسا  
 تنقل من وكر لمن إلى وكر  
 هجرت سواها كل دار عرفها  
 وحق لدار غير دارك بالمجير  
 وبنيان قصير قد علت شرفاته  
 كصيف نساء قد تربعن في الأزور<sup>(٣)</sup>

(١) ما يناء الجن زعم من مزاعم العرب في جاهليتهم  
 (٢) البيض : الفارهم لأنها من الفضة ، والصفير : الدناير لأنها من النعيب  
 (٣) عرفاته : مثلات أو مربعات تبنى متقاربة في أعلام ، والأزور : جمع إزار

وأناهار ماء كالسلاسل نخرت  
 أنزع أولاد الربيعين والزهر  
 وميدان حسن تركض الخيل وسطه  
 فيؤخذ منها ما يشاء على قدر  
 إذا ما رأيت ماء الثريا ونبتته  
 يسير وتوب السكب فيبن والعشر  
 عطشا إلى منعم كان عالما  
 بأنك أوفى الناس قهين بالشكر  
 حكمت بعددك لم ير الناس مثله  
 ودلويت بالرفق الجوح وبالفهر  
 ثم قال :

وما ليت غاب يهدم الجيش خوفه  
 بمشية وثاب على التمر والزجر  
 يجر إلى أشباله كل ليلة  
 عقيرة وحسن أو قتيلا من السفر<sup>(١)</sup>  
 يزعم أحشاء البلاد زئيره  
 ويطلق أبطال الرجال من القهر  
 بأجرأ منه حد بأس وعزيمة  
 إذا ما ترى قلب الجبان إلى النحر  
 فكل أناس يشيرون أكتفهم  
 دعاء له بالعز فيهم وبالنصر

(١) الأشبال : أولاد الأسد



وقال في الخبر وما إليه :

لا عذر للماذل في الكاس  
فأ أرى في الكاس من يأس<sup>(١)</sup>

ونلى من الناس ومن لومهم  
ما لى الناس من الناس<sup>(٢)</sup>

عظفت المعصر هضم الحشا  
مشرق بالوعدة مكاس<sup>(٣)</sup>

وقام في العاتق متدله  
يدبر كآسا بين جلاس<sup>(٤)</sup>

وشجر القيل إلى خصره  
وحشا بالرطل والكاس<sup>(٥)</sup>

وطالنا عذبي حجرة ووكل القلب يوسواس  
لنا ألتلى رثله بالرضا أنسيت مامر على راسي

وإ أزل والليل سرتنا من دون رقاب وحراس  
أشكور إلى غمرة عينيه ما قاسيته من قلبه القاسي

في ليلة ما مثلها ليلة است لها ما عشت بالناسي

(١) يأس يأس يتخلف الهمز كالنكاس

(٢) ما لى الاستفهام تعجب

(٣) عظفت المعصر : فثله - وكذا هضم الحشا ومكاس : جمائل

(٤) العاتق : ما بين الكتف والرقبة

(٥) حشا : أشرع الدنيا

وقال في الشيب :

من يشترى مشبي بالشعر القريب (١)  
من يشترى مشبي وليس بالمصيب  
نود الرؤوس والعيى وعلمسة القلوب  
أبن القوائى والصبا والعذر في الذنوب (٢)  
هيات ليس شبي من ذاك بالغريب  
قد انتدى بفارح مسوم يعيوب (٣)  
ينق الحضا بمخامر كالقندح المكبوب  
وضحكت غرته في موضع التقليب (٤)  
إذا أغذت أربعة لقتنها المظلوب (٥)  
لم يقطع غيارها قبل دم معيوب

وقال في مدح المكتكى :

للمكتكى دولة مباركة عاش بها الناس بعدما هاتوا  
يلوح من تحت تاجه قر وافق به السعود ميقات (٦)  
خليفة لا يخيب سائله سرته الأرض والسموات  
ما ولدت هاشم له شيا من أب من أب مثل هاتوا

(١) القريب الشيب السواد

(٢) القوائى الحسن ، والصبا الميل إلى الفرو والصب أو الشعر

(٣) الفارح من ذوي الخمار ماعنى تاجه وطلع ، ومسوم مطر ، ويعيوب يرم

(٤) التقليب العروس (٥) أغذت أربع ، وقتنها مصيدها

(٦) السعود كواكب عديدة يقال لسكنى وأحد منها سعد ، وكانوا يتقاعلون بها

ومينات موه

وهذا وما سبق له في المدح من مبالغاتهم في مدح أولئك الملوك،  
مع أنهم كانوا يتمكن من الضعف ، ولم يكن لهم من الأمر شيء ،  
وإنما كان لوالدهم من الزك ، وكذلك لم يكونوا بما يعقونه من  
العدل ونحوه ، ويكنى أن ملكهم كان يقوم على الغلبة والفر ،  
لا على رضا واختيار من الأمة ، ولم يكن لآل المعز أن يمدح بغير  
هذا وهو ينتصر لهم في هذا الملك المقتضب ، ويرى أنهم أحق به من  
غيرهم ، وكان فيا أصيب به في آية وجوده ما يجعله يقتصد في منحه  
والتعصب لهم .

## الشريف الرضي

### نسبه ومولده :

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش ،  
ابن محمد أبي الطيب ، بن موسى أبي سبيحة ، بن إبراهيم المرتضى ،  
ابن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علي  
زين العابدين ، بن الحسين الشهيد ، بن علي ابن أبي طالب ، رضي الله  
عنهم جميعا ، وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر الأهم صاحب  
الديلم بن علي ، بن الحسن ، بن علي ، بن عمر بن علي زين العابدين بن  
الحسين بن علي بن أبي طالب ، فهو شريف النسب لأبيه وأمه ، مما  
كان له أثر عظيم في علو همة وكرم نفسه .

وكان مولده سنة ٤٢٥٩ هـ - ٩٦٩ م - بغداد قاعدة الدولة  
عباسية .

### نشأته وسيرته :

نشأ الشريف الرضي في ذلك البيت الكريم ، وكنى أخوه  
الشريف المرتضى بفاربه في السن ، وكان أبوه وأجداده على مذهب  
الشيعة الإمامية ، يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين ، فكانوا  
يحينون لها القرمص ، ويعملون على الوصول إلى حقهم ، وكان

العباسيون يستريحون ٢٣ من أجل ذلك ، حتى إن الشريف الرضي  
نشأ هو وأخوه الشريف المرتضى وأبوهما بعيد عن بغداد في مقام  
لأسراية العباسيين فيه .

فكانت أمهما تربيتهما تنمها لا يلقى بشرفهما من المراتب العالية،  
والدرجات الرفيعة ، فنشأ كل منهما عالماً أدبياً ، ولكن الشريف  
الرضي غلب عليه الشعر ، أما الشريف المرتضى فغلب عليه النظم  
والكلام والجدل ، وهو من أكبر أئمة الشيعة قماً غلب عليه  
من ذلك .

وكان الشريف الرضي من تأثر في شعره بمدرسة أبي تمام، فكان  
شعره ضخم القفط ، دقيق المعاني، وقد قال الشعر وهو في العاشرة من  
عمره ، ونما ظله وهو في الرابعة عشرة من عمره ، يتغير أبيات في مقام  
بوفاة عضد الدولة ملك بنى بويه ، وكانوا على مذهب الشيعة الإمامية:

ألقا عن الحسين ألوكا

أن ذا الطود يعد بعدك ساعة<sup>(١)</sup>

والشهاب الذي اصطفت لظياه

عكست ضوءه المظلوب قبا<sup>(٢)</sup>

والقنق الذي تدرج طول ال

أرض خوى به الردى وأنا<sup>(٣)</sup>

(١) ألوكا رسالة ، والطود الجبل العظيم استمارة لعهد الدولة ، ساج ساب وذهب

(٢) ذبح ألقا

(٣) القنق الفعل المكرم لا يؤذي ولا يركب لكرائه ، خوي به

الردى استقط

وهو شعر يدل على تأثره بتلك المدرسة إلى حد بعيد ، نشأته في بيت عربي ، ولأخذه بدراسة أدبية منذ نشأته ، وقد سار على هذا النهج في شعره ، حتى بلغ به مبلغ يقول تلك المدرسة ، واستعمله في أغراضها من المدح والذم والقرول وما إليها من أغراض الشعر .

ولكنه لم يتكسب بشعره كما تكسب أبو تمام والبحري ، بل كان يمدح ملوك بني العباس وكبراء الدولة مدح الدلائل، والمناسبات تقتضي ذلك المدح ، كما يقول القادر العباسي :

عطفا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نفرق  
ما بيننا يوم النخار تفاوت أبدأ كلانا في العلاء معرق<sup>(١)</sup>  
إلا الخلافة طوقك فإنني أنا عاقل منها وأنت مطوق

وكان كبراء الدولة يعرفون له كرم نفسه فيكرمونه ويرفون منزله ، حتى إنه دخل يوما على نضر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بناء الدولة وسليمان الدولة من بعده ، فرفع منزله وأجلسه في دسنة<sup>(٢)</sup> ثم قبع إلى جازبه وعظمه وأجله ، وخلق ما بين يديه من الفصاحات والرفاع<sup>(٣)</sup> وأقبل عليه بمأدته ويستمع إليه إلى أن انتصرف . ثم دخل على الوزير بعده أخوه الشريف المرتضى ، فلم يفعل معه ما فعل مع الشريف الرضي ، بل اكتفى بالترحيب به وفناء.

(١) معرق استعاره من معرق الشجر امتدت عروقه في الأرض.

(٢) الدسنة صدر البيت والجلس .

(٣) الرفاع جمع رفعة وهي المطة التي تكتب من الورق.

حاجته . وكان في المجلس أبو حامد أحمد بن محمد الأسفرايئي الفقيه الشافعي ، فاستغرب ما فعله الوزير وقال : أصبح الله الوزير ، وهذا المرتضى الفقيه المتكلم صاحب الفتون ، وهو الأمثل والأفضل<sup>(١)</sup> . وقد رأيته يحمل أهاء الشاعر وتعمل معه ما لم تفعله مع أخيه . فقال الوزير وقد أخذ بيده كتابا - اتعصل به أنه قد ولد لرضي ولد ، فأخذت إليه ألف دينار . وقلت : هذه للفايلة ، وقد جرت العادة أن يحمل الاصدقاء إلى أخلائهم وذوي مودتهم مثل هذا فيمثل هذه الحال . فردعا وكتب إلى هذا الكتاب يحذر فيه بقوله : إنا أهل بيت لا بطلع على أحوالنا قابلة غريبة ، وإنا عجايزنا يتولين هذا الأمر من نساءنا ، ولسن عن يأخذ أجرة ولا بدين صلة . وقد رددت إليه المبلغ ثانية وقلت للحاجب : يفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم . فقال الشريف للحاجب حين وصل : ها هم حضوري . فليأخذ كل واحد ما يحتاج إليه . فقام رجل فأخذ جزء من دينار ورجع . فسأله الشريف عن ذلك . فقال : احتجيت إلى دهن السراج ليلة ولم يكن خازنك حاضرا . فأقرضت الدهن من يقال . وقد أخذت هذه القطعة لأدفعها إليه عوض دهنه . وقد عاد الحاجب بالذناير وذكر لي القصة . وزاد بأن الشريف أمر بخرائمه فصنع لها مقاييح يحدد طلاب العلم عنده ليتناول كل منهم ما يحتاج إليه عند غياب الخازن . أما المرتضى فقد أصاب أرضا له ضريبة تعادل الدينار الواحد . حلتها أرضه وأرض جيرانه بقية حفر قناة يستفيد منها

(١) هكذا يدل على تناوب ما بين العلماء التبعين من أهل السنة والشيعة في ذلك العهد .

الجميع ، فكتب إلى طابا إسقاط الدينار ، وبعث برسالة كلها هن  
أرجحية ، فأجما نرى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم للتكلم  
للقية الأوجد ، أم ذلك الذي اشتهر بالشعر ونفسه تلك النفس ؟ فقال  
أبو حامد : والله ما وضع سيدنا الوزير الأمر إلا في موضعه ، ولا  
أحد إلا محله .

والقصة تفيد أن الرضى كان يجمع بين الشعر والعلم ، وإن لم  
يبلغ في العلم مبلغ أخيه المرتضى ، فكان له طلاب يطلبون عنه كما  
يطلبون شعره ، وكان له مصنفات تدل على ملقه في العلم : منها  
مشابه القرآن ، ومجازات الآثار القوية ، ونهج البلاغة ، وتلخيص  
البيان عن مجازات القرآن ، والخصائص ، وسيرة والده ، والحسن  
من شعر الحسين - منتخب شعر ابن الحجاج - وأخبار قضاة  
بغداد ، ورسائله ونقع في ثلاثة مجلدات ، وديوان شعره ، وذكر  
الشيخ أبو الحسن العمري أنه شاهد مجلدا من تفسير القرآن مفسوفا  
إليه مليحا حسنا ، يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطوسي  
أو أكبر .

وقد تحسنت العلاقة بين أبي أحمد الحسين وولديه الرضى  
والمرتضى وبين العباسيين ، فعاد أبو أحمد إلى بغداد ، وتولى الرضى  
نقابة الطالبين من العباسيين ، وخفت حدة النزاع بينهما على الخلافة  
حين صارت خلافة اسمية لا يمسد العباسيون عليها ، وحين استأيد  
ملوك بني بويه وتبرم بهم ، وصاروا يولون ويعزلون كما يشاؤون  
فيهم ، فلم يجد الطويون والعباسيون إلا أن يتقرب بعضهم إلى بعض  
••



في هذه الحنة - لأنهم أبناء عم - ولم يبق لهم بنو بوية وغيرهم  
ما ينتظرون عليه .

ومن هذا ما حصل من الرضى حين قام بنفسه شيء مما كان  
يقوم بنفوس العلويين فقال :

ما مضى على الحصان وعندى

مقبول صارم وأنت حمى

وإياه - علق في عن الضيق

سبح كما راغ طائر وحش<sup>(١)</sup>

أليس اللذ في ديار الأعادي

وبعصر الخليفة العلوي<sup>(٢)</sup>

من أبوه أبي ومولاه مولا

ي إذا ضامني الجيد القعي

لف عرق يعرفه سيدنا النسا

من جميعا - محمد وعلى

فبعد القادر بالله العباسي جلوسا استحضرت فيه والد الرضى وأخاه  
وطائفة من وجوه القوم ، ثم قال لوالده الرضى : قل لو أنك محمد .  
أى هوان قد أقام عليه عندنا ؟ وأى شتم لى من جهتنا ؟ وأى ذل  
أصابه في ملكنا ؟ وما الذى يعمل معه صاحب مصر لرمضى إليه ؟  
أكلن يصنع إليه أكثر من صديقتنا ؟ ألم نوله النفاة ؟ ألم نحكه في

(١) راغ ذهب هربنا وهربنا .

(٢) يحيى خليفة القاطنين بمصر .

اللفظ ؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلنا أمير الحجيج ؟  
فهل كان يحصل من صاحب مصر أكثر من هذا ؟

ويطلب على ظني أن هذا الشعر مدسوس على الرضى . لأن  
الفاطميين بمصر كانوا شيعة إسماعيلية . وأبو أحمد وأولاده كانوا  
شيعة إمامية ، وكان بين الطائفتين من الخلاف مثل ما كان بين  
العباسيين والعلويين .

وكانت وفاة الرضى سنة ٤٠٦ هـ : ١٠١٥ م ، وقد تار كثير  
من الشعراء . ورواه أخوه المرتضى فقال :

يا للرجال النجعة جذعت يدي

وودت لو ذهبت على براسي<sup>(١)</sup>

مازلت أصبر وردعا حتى أنت

فصوتها في بعض ما أنا حاسي<sup>(٢)</sup>

ومعطتها زما فلما صممت

لم يثنا مطلق وطول مكاسي<sup>(٣)</sup>

فد عمرك من قصير طاهر

ولرب عمر طال بالأدناس

(١) جذعت قطعت بسرعة .

(٢) ورد الماء ذهب إليه . وصادر عنه وجع بعد الورد ، صوتها شريها شريها  
بعد شيء .

(٣) مكاسي مأخوذ من مأكسة شاكسة .

#### متزكته في الشعر :

قيل : إن الرضي أشعر قريش . وحبك أن يكون أشعر  
قبيلة في أولها مثل الخارث بن هشام . وهيرة بن أبي لهب . وعمر  
بن أبي ربيعة . وفي آخرها مثل محمد بن صالح الحبيني . وعلى بن  
محمد الجاني ، وابن طباطبا الأصمعي . وإنما كان أشعر قريش  
لأن الميبد فيها ليس بكثرة ، والكثرة ليس بمجيد ، والرضي قد جمع بين  
الإكثار والإجادة ويرد على هذا عندى عمر بن أبي ربيعة ، فقد جمع  
بين الإكثار والإجادة أيضا ، إلا أن يقال إن أكثر شعراء في الغزل .

#### عبارات من شعره :

##### قال في الغزل :

هل ناشد في يحقيق الحوى غزلا صر على الركب<sup>(١)</sup>  
أقلت من صائده غرة وعاد بالقلب إلى السرب<sup>(٢)</sup>  
منعم يعطف منه الصبا لعب الصبا بالقصص الرطب<sup>(٣)</sup>  
بلادة النعمة في طبعه ورعسا ناقش في الحب  
أما اتقى الله على ضعفه معذب القلب بلا ذنب<sup>(٤)</sup>  
يلما طلا لي بديون الهوى من دل عينك على قلبي  
وفي آياته الثلاثة الأخيرة معان رفيقة مستعدثة في الغزل . وظني  
إنه لم يسبق إليها .

(١) غزلا تصغير غزال استعاره لحسان .

(٢) السرب جماعة الغزلات .

(٣) الصبا بكسر الصاد الفتا . ويقامها روح منها من الشرق .

(٤) معذب اسم فعل وهو فعل اتقى .

ومن شعره في الرثاء ما قاله في رثاء جده الحسين شهيد كربلاء،  
وهو آخر ما نظمته، وكان بمشهد الحسين في كربلاء حين قاله :

كربلاء لا زلت كرباء وبلاء  
ما لي عندك آل الصفا<sup>(١)</sup>  
كم على ترك ما صرخوا  
من دم سال ومن دمع جرى  
كم حصان القليل يروي دمعها  
خديها عند فتيل<sup>(٢)</sup> بالظلم<sup>(٣)</sup>  
تمسح التوب على إصبعها  
عن طلي نحر رميل<sup>(٤)</sup> بالدماء<sup>(٥)</sup>  
وضيوف الغلاة قسرة  
زلوا فيها على شبر قري<sup>(٦)</sup>  
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا  
بعدا السيف على ورد الردى<sup>(٧)</sup>  
تكسف الشمس شمساً مذموم  
لا تدانيها ضحايا وعلا

(١) كربلاء مقصود كربلاء، ما لي استعمال تعجب.

(٢) حصان القليل كناية عن القلة.

(٣) الطلي الأعداء رميل بالدماء مطلق بها.

(٤) القري طعام السيف.

(٥) الجدا الطر وإذاعة سيف من أشارة الشبه بالي المشبه.

وتنوش الوحوش من أجسادهم  
أرجل السبق وأيمان الندى<sup>(١)</sup>  
ووجوها كالمصاييح فمن  
فسر غاب ونجم قد هوى  
غيرتهم الليالي وغدا  
جائر الحسك عذرين البسار<sup>(٢)</sup>  
يا رسول الله لو ما نبتهم  
وهم ما بين قتل وسبا  
من رميض ينج الظل ومن  
ماطش يسقى أنابيب القضا<sup>(٣)</sup>  
ومسوق مائر يسعى به  
خلف مجول على غير وطا  
متعب يشكو أذى السير على  
نقب المنسم مجزول<sup>(٤)</sup>  
لأت عيناك منهم منظراً  
للحشا شعوا وللعين قذى  
ليس هذا رسول الله يا  
أمة الطفيلان والبهي جزا

(١) تنوش تناول .

(٢) البلاء فاعل غدا .

(٣) رميض متعرق التدخين من الحر . ألتنا الزماح .

(٤) نقب المنسم أصابة الخلل بهزل العظا مجروح الظاهر .

غارس لم يأل في القرس لهم  
 فأذاقوا أهله من الجنى<sup>(١)</sup>  
 جزروا جزر الأضاحي لسه  
 ثم ساقوا أهله سوق الإماء<sup>(٢)</sup>  
 معجلات لا يواريت ضحى  
 سن الأوجيه أو بيض الطلى<sup>(٣)</sup>  
 حانقات برسول الله في  
 جر السعي وعزات الخلعى<sup>(٤)</sup>  
 أدرك الكفر يوم تاراته  
 وأدىل القى منهم فاشتق<sup>(٥)</sup>  
 يا قاتل قوس الدهر به  
 عمدا للدين وأسلام الهدى  
 قتلوه بعد علم منهم  
 أنه غامس أصحاب الكسا<sup>(٦)</sup>  
 غسأوه بدم الظمن وما  
 ككتنوه غير يوغاء الثرى<sup>(٧)</sup>

(١) لم يأل لم يندس .

(٢) الآاء مقصور الآاءاء .

(٣) سن الأوجيه سورهااء والعللى الأعناق .

(٤) البير انقطاع النفس .

(٥) أدىل القى منهم جعلت له أكره عليهم .

(٦) بى غامس غمهم المظن فى كسأه على ما هو معلوم .

(٧) يوغاء الثرى وهو التراب .

صرعفا يدعو ولا غوث له  
 باب بر وجد مصطلق  
 ويأم رفع الله لها  
 علما ما بين نوان الرعي  
 أي جد وأب يدعوها  
 جد يا جد أغثنى يا أبا  
 كيف أم يستعمل الله لهم  
 بانقلاب الأرض أو رجم السما

إلى أن قال :

لو رسول الله يحيا بعده فقد اليوم عليه لعزا  
 معشر منهم رسول الله وآل كاشف الكرب إلى الكرب عزا  
 صهره الباذل عنه نفسه وحسام الله في يوم الوعى<sup>(١)</sup>  
 ثم مضى في ذكرهم إلى أن قال :

يا جبال الجدد عزرا وعلى وبدور الأرض نورا وسنا  
 جعل الله الذي تابكم سبب الوجد طويلا والكا  
 لا أرى حزنكم يلسى ولا رزءكم يسلى وإن طال المدى  
 وهو متأثر فيها بما شيمان الكيث بن زيد الأسدي إلى حد بعيد :

(١) صهره: بدل من الكفاف ، يعني على بن أبي طالب.

## الشريف المرتضى

### نسبه :

هو علي بن أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش بن محمد الأهرج بن أبي سبحة موسى بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : ويعرف بالشريف المرتضى . وهو أخو الشريف الرضي .

### حياته :

ولد ببغداد في شهر رجب من سنة - ٣٥٥ هـ - ٩٦٥ م . ونشأ بها هو وأخوه الرضي في كنف أبيهما أبي أحمد ، وكان تغيب الطالبيين ببغداد وعالمهم وزعيمهم - وكان يجمع إلى رئاسة الدين زعامة الدنيا - لظهوره ، وعظيم هيبته ، حتى إن عضد الدولة البويهي كان يتشأه لأنه كان متحازلاً إلى عمه بختيار بن معز الدولة - فعين قدم العراق قبض عليه في سفر من سنة ٣٦٩ هـ - واعتقله في قلعة بصرى - فكثرت بها إلى أن مات عضد الدولة سنة ٣٧٣ هـ فلما تولى شرف الدولة بن عضد الدولة أطلقه واستقدمه معه إلى بغداد ، وأعادته إليه نقابة الطالبيين - وقاده قضاء الفضاة وولاية الحج والمظالم .



ولسكنه لم ينظر في قضاء القضاء لامتياز القادر بالله العباسي عن الإذن له به . فورث عنه أبناء المرتضى والرضي ما كان له من علو المنزلة . وبعد الحمة .

وكان أبو أحمد من الشيعة الإمامية فنشأ ابنه المرتضى على مذهبه . ودرس هو وأخوه الرضي على كثير من علماء عصره في مختلف العلوم والفنون . ومن أخذوا عليه الشعر والأدب أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن تياته السعدي . وأبو عبد الله محمد بن عمر أن المرزباني . ومن أخذوا عنه الفقه والأصول محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ الثقيد ، وهو الذي انتهت إليه رئاسة الإمامية في عصره في الفقه والكلام والحديث .

وكانت دراسة المرتضى أوسع من دراسة الرضي ، لأن نزعة المرتضى كانت علمية أكثر منها أدبية . ولهذا غلبت فيه نزعة العلم على نزعة الشعر . وغلبت في الرضي نزعة الشعر على نزعة العلم . فكان المرتضى عالماً واسع المعرفة ، غزير الاطلاع . ملها بفنون . الثقافة الإسلامية التي كانت مزدهرة في عصره . حتى كان فقيه الشيعة الإمامية ومكملها بعد وفاة شبيهه الثقيد . وكان إماماً في علم الكلام والفقه والأصول والأدب والفقه والتفسير والتاريخ والقراجم وما إليها من علوم عصره وفنونه .

وبهذا اختلفت نزعة الأخوين فكان الرضي طموحاً متطلباً للرياسة حتى إن كان يعني نفسه بالخلافة . أما المرتضى فكان مشغولاً بالعلم منصرفاً إليه بين دراسة وتدريس . حتى إنه اتخذ من

داره وكانت واسعة ، مدرسة لتدريس الفقه والعلوم والآداب والتفسير  
واللغة والشعر والعلوم الأخرى كعلم الفلك والحساب وغيرها .  
وكان يسحبها دار العلم ويخذه فيها مجلسا للناظرين . وكان  
الطلاب يقعدون فيها على اختلاف مذهبهم ومذاهبهم . ومن أخذ عليه  
بعض اليهود إذ أخذ عليه علم التنجيم أي علم الفلك<sup>(١)</sup> وكان يقضي  
لندرسه مكتبة واسعة بلغت مجلداتها ثمانين ألف مجلد .  
وقومت بثلاثين ألف دينار .

وكذلك كان مجلس مناظرة يتبع العلماء على اختلاف مذهبهم  
ومذاهبهم . مما يدل على مرونة في الدين . وعلى واسع علمه وثقافته ،  
وقد وصف ابن الجوزي مجلسه فقال : إنه كان يناظر عنده في كل  
المذاهب . وقال محمد بن يحيى بن مبارك الحنصلي في سماحه الدينية  
والعلمية : ما رأيت رجلا من العامة إلا وهو يثنى عليه . وما رأيت من  
يحبسه حقه . وما رأيت إلا من يزعم أنه من طائفته . وهذا لا يمنع  
عندي أنه كان شيعيا إماميا . لأنه لا يدل إلا على أنه كان متسامحا  
في مذهبه . ولم يكن مترعنا فيه كن يزمعت في مذهبه من الفرق  
الإسلامية .

وقد سئل عنه أبو العلاء المعري بعد أن حضر مجلسه وكان قد  
قعد إليه من المرة فقال :

يا سائلي عنه لما جئت أسأله فإنه الرجل العاري عن العار  
لوجنته رأيت الناس في رجل والدمع في ساعة والأرض في دار

(١) سائل غيبته في ذلك .

ويقال إن جرت مخاطرة في مجلس المرتضى بين وبين أبي العلاء في مسائل فلسفية قال له في ختامها : ألا كل ما يجد ما يد أي ظالم . لأنه يقال : ألد الرجل إذا عدل عن الدين وألد إذا ظلم . وقد قال الله تعالى : (إن الشرك العظيم) ثم منعه من العودة إلى مجلسه . وعلم بعضهم في صحة هذا بأن أبا العلاء لم يتم بالإخاد إلا بعد عودته من بغداد إلى الحيرة ولزومه منزله فيها .

ويقال أيضا : إن أبا العلاء كان يصعب المتني وكان المرتضى يصعب عليه . فتنفسه يوما في مجلسه وجعل يتبع عيوبه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن المتني من الشعر إلا قوله « لك يا منازل في القلوب منازل » لسكناه فضلا . فعضب المرتضى وأمر فحجب برجله وأخرج من مجلسه . ثم قال إن يحضرته : أندرون ما أراد بذكر هذه القصيدة ؟ فقبل له : أنت أعرف . فقال أراد قوله فيها : وإذا أنتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني كامل . وبعضهم علم في صحة هذه القصة أيضا . لأن أبا العلاء روى والده المرتضى قبل مفارقتها بغداد بقصيدة أنى فيها على المرتضى والرضى فقال :

أبليت فينا كوكبين سناهما في الصبح والظلام ليس ينادي  
متأنيق في المسكارم أرتعا متألقين يسودد وعفاف  
ساوى الرضى المرتضى وتفاضلا  
خطط العلا يتناصف وتضاف  
فلو جرى ذلك من المرتضى له لما أتى عليه هذا البناء .

وكان المرتضى منزله لدى ملوك بني العباس كإبيه وأخيه مع  
عزائهم لهم في المذهب . لأن هؤلاء الملوك كانوا سنيين . فلما مات  
أخوه الرضى ولاه القادر بالله نقابة الطالبين وأمر الخج والمظالم ،  
وقد عاصر المرتضى أربعة منهم ، وكان شديد الاتصال بهم . وسأحب  
مشورتهم . وسفيرهم في أكثر مملاتهم إلى الملوك والوزراء وغيرهم .  
ومن شعره كثير في مدائحهم . كما كان لأخيه الرضى أيضا .  
وتعلما كانا يقصدا أن يذرا رفع شأنهم لإنهان على المتغلبين عليهم من  
ملوك بني بويه وغيرهم . وهم أبناء عمومتهم . وفي هوانهم  
هوان لهم .

وكانت وفاة المرتضى خمس بقين من شهر ربيع الأول من سنة  
٤٣٦ هـ : ١٠٤٤ م - ونقل عنه أنه قال عند وفاته :

لأن كان حظي عاقي عن سعادتي

فإن رجائي واتق بحاي

وإن كنت في زاد النقية والحق فقيرا فقد أمسيت ضيف كرم

عقيدته وأخلاقه :

كان المرتضى يأخذ بمذهب الشيعة الإمامية . وهم ينقسمون  
من الناحية الفقهية إلى قسمين :

١ - أخيارين ينعون الاجتهاد في الأحكام الشرعية ، ويعملون  
بالأخبار الواردة عندهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته .  
ويرون أن ما فيها قطعي السند أو موثوق بصدره . فلا حاجة إلى

البحث في سندها ولا إلى تقسيم أحاديثها إلى الصحيح والحسن وغيرهما، لأنها كلها صحيحة ، ولا حاجة بعد هذا إلى ما يسمى بعلم أصول الفقه .

٢ - وأصوليين يقولون بالاجتهاد ، وبأخذون بالأصول الأربعة في استنباط الأحكام الشرعية ، وهي الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل ، ورأى في أخبارهم أنها غير قطعية السند ، وأن أحاديثها مختلفة للراغب .

والمرتضى من القسم الثاني ، فكان في جميع كتبه ورسائله أصوليا بحتا ، ومجتهدا صرفا ، قليل التعليق بالأخبار كثير الاستدلال بالأدلة العقلية الموافقة لكتاب والسنة المتواترة ، لأنه كان لا يحول على أخبار الآحاد .

والشيعة الإمامية توافق المعتزلة في كثير من مذاهم الكلامية ، كما يقول بنو الصفات عن الله تعالى وأنها عين ذاته ، والقول بالحسن والقيح العقليين ؛ ونما لفهم في مذهبها في الإمامة وأنها بالنص الخلق وفي قولهم بخلق القرآن ونحو ذلك .

وكان المرتضى يقول بقول جماعة في ذلك ؛ ولهذا يجهه بعض أهل بعض السنة بأنه كان من أهل الاعتزال ، ومثل هذا لا قيمة له الآن في عصر انتشرت فيه حرية الرأي على جمود أصحاب التقليد .

أما أخلاقه فكان فيها على ما سبق في الكلام على حياته ، ولكن بعضهم يرميه بأنه كان بغيلا حريصا على الدنيا بخلاف أخيه الرضى ويعتدل على هذا بقصتهما عند الوزير محمد بن خلف ، وقد ذكرت

في الكلام على الرضى وبعضهم يظن فيها بأنها مضطربة ، لأنها في هذه الرواية كانت عند هذا الوزير ، وفي رواية أخرى أنه كان الوزير أبا عبد المطلب على أنه لا يقدح في المرتضى أن يسأله رفع ضريبة عنه قدرها عشرون درهما إذا كان يراها ظالما ، وإنا يقدح فيه أن يسأله صلة على عادة الشعراء للتكسين بشعرهم ، ولا يصح أن يرى باليخل من فتح داره لطلاب العلم على كثرتهم ، وأجرى عليهم من المزايا ما يفي بحاجتهم . ولا يصح أن يرى بالحرص على الدنيا ومن نوافره في الكرم أن أبا الحسن القائل بأهه نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد بستين ديناراً - لا عشرين درهما - فلما تصدحها وجد فيها أياتنا يخط أي الحسن :

أنت يا عشرين حولاً وبعثنا

لقد طال وجدي بعدها وجنتي

وما كان ظني أنني سأبعتها ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لتضع وإفقار وصية صغار عليهم تستل شؤني <sup>(١)</sup>

فقلت ولم أملك سواي عيرة مغالة مكوى الفؤاد حزني

وقد تفرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بن شنين <sup>(٢)</sup>

فرد النسخة إليه وترك له الدنانير .

وقد افترق المرتضى بالكرم في كثير من شعره كما قال :

(١) شؤني : دموعي .

(٢) هذا البيت لأمرأى باع جلا طرفة بن عذراة بن الزيد يحمين ديناراً ثم جعل ينظر إليه ويقول ذلك ، فوهبه له والدناير .

دعي متفري إن لم أكن لكراثما ولا تنظري إلا إلى حسن نظري  
فأني ونير القول ما كان صادقا لدى النظر سباق إلى كل مقدر  
وأعلم أن الدهر بعث صرفه بما شاء من مال البخل المقدر  
عذلت على تذر مالي وهل ترى تجمع إلا للجور المبذر  
أفرقه من قبل أن حال دونه رحيلي عنه بالخام المقدر  
وكان كرمه بذلك شاملا لكل من يقصده ولو لم يكن من أهل  
دينه . كما فعل مع يودي أفس عندما أصاب الناس فحط شديد .  
فاحتال لتحصيل قوت يحفظ نفسه فحضر يوما مجلس المرتضى فاستأذنه  
أن يقرأ عليه شيئا من علم النجوم . فأذن له وأمر له بما فرغ تجرى  
عليه كل يوم ، فقرأ عليه برهة ثم أسلم على يده .  
وهذا كما يدل على كرمه يدل على سماحته في دينه . ويدل عليها  
أيضا ما كان له من صلة وثيقة بأبي إسحاق الصابي فلم يشبها شائبة  
من اختلافهما في الدين إلى أن أدركت أبا إسحاق الوفاة . فراءه  
في شعره رثاء حسنا كما رثاه أخوه الرضي . وفي رثائه يقول :  
ما كان يومك بأبا إسحاق إلا وداعي للمني وفراق  
وأشد ما كان الفراق على الفتي ما كان موسولا بغير تلاق  
ولقد أتاني من مصابك طارق . لكنه ما كانت كالطراق  
على تنعيم لفظ الشعر وتجويد معناه ليعود إلى أسلوبه الذي كان  
عليه في عهد الجاهليين والخضرمين والإسلاميين ، وإن كان على نحو  
آخر يلائم ما ظهر من التناقض بين العرب بعد اختلاطهم بغيرهم من  
الأمم ، ونهضة الإسلام بهم في دينهم وديارهم .

#### مختارات من شعره :

قال في الغزل :

ضن على بالزر إذ أنا به      طان وأعطى كثيره في الشام  
والقينا كما اشتبنا ولا عيب      يت سوى أن ذلك في الأحلام  
وإذا كانت الملاقاة ليسلا      فإلى خير من الأيام  
وقال فيه أيضا :

يا خليلي من ذؤابة قيس      في التصابي رياضة الأخلاق  
خلاني بذكرهم تطرباني      واستغياي دمع بكأس دهاق  
وخذ النوم من جفوني فإني      قد خلعت الكرى على العشاق  
ولبيت الأخير قصة له مع ابن المطرز الشاعر . وكان جالسا  
في علية له فأخرج رأسه من نافذة لما قرأى ابن المطرز يمر تعالا  
بالية وهي تثير الغبار ، فأمر به فأحضر وقال له : أنشدني أبياتك  
التي تقول فيها :

سرى مغرما بالعيش ينتج الركا      بسائل عن بدر الدجى الشرق والغربا  
على عذبات الخزع من ماء تغلب      غزال يرى ماء القلوب له شربا  
إذا لم تلبقى إليكم ركباني      فلا وردت ماء ولا رعت العشيا  
فلما أنشده إياها وانتهى إلى هذا البيت أشار المرتضى إلى تعبه



البائية وقال : أهذه كسانت من ركائبك ؟ فأطرق ابن المطرز ثم  
قال : لما عادت هبات سيدنا الشريف إلى مثل قوله :

وغد النوم من جفوني فإني

قد خلعت السكري على العشاق

عادت ركائبى إلى مثل ما ترى . لأنك خلعت مالا تملكه على  
من لا يقبله ، وهى قصيدة طويلة على هذا النحو من فصاحة الألفاظ  
وجزالتها . وفى آخرها يقول فيها بينهما من الاختلاف فى العنصر  
والدين :

إن لم تكن من عنصرى فلا أنت بال

آداب من أهلى وبالأخلاق

وهوذة بين الرجال تضميم

وتلقم خير من الأعراق

من ذا نضاعنا شعار جالنا

ورمى هلال سمائنا بمحاق

فلئن خرسنا عن البيان فطامنا

حكمت أنى شئت بالإنفاق

ولئن تحممت القراب فطامنا

قد كنت محولا على الأعناق

قلمض بعدك من أحب فقد مضى

مك الجسم يهين ووقاى

مالى انتفاع بعد فقدك صاحبيا  
 حلو المذاقة فى الورى يذاق  
 نسجت عليك رياض كل بلانة  
 وسفادك منها ما تشاء الساق  
 وبعثت على كل الرجال فقدتها  
 لرضاك بالأرسان والأوراق<sup>(١)</sup>  
 طلبوا مذك ففهم وسبقهم  
 ركضا ولم تسمح لهم بالحق  
 والآن بعد اليأس منها أيقنوا  
 أن البلاغة فى يد الرزاق  
 وليسق قورك كل منغرق السكلى  
 مرعاد كل عشية مبراق  
 وإذا جفا القرب السحاب فعنده  
 ما اخترت من سح ومن إطباق<sup>(٢)</sup>  
 لم يغن دهر من نأى وله يشا  
 كلم على مر الزمان يواق  
 وإذا مضيت وفيك فقتل باهر  
 فبين نسلت فانت حتى باقى

(١) الأرسان : جمع ورن وهو القيد والأوراق جمع ورقة وهي الحفنة .  
 (٢) إطباق السحاب محووه وشبوه .

#### منزله الشعرية :

للمرتضى ديوان شعر يحتوي على عشرين ألف بيت ، وهو  
معدود في الرعييل الأول من الشعراء الجيدين ، ولكن بعضهم يفضل  
عليه أخاه الرضى في الشعر ، ويفضله عليه في العلم ، ويقول في ذلك :  
لأنه اشتهر عن بعض الغلاة أن المرتضى أشعر أهل زمانه لو لم يكن  
الرضى أخاه ، وأن الرضى أعلم أهل زمانه لو لم يكن المرتضى  
أخاه .

وهذا يكون المرتضى كأخيه الرضى من مدرسة أبي تمام التي  
عملت فاستحسن جوابه وأمر له بجائزة فأعطوه لها .  
وقال في الغزل أيضا :

بيتي وبين عواذلي في الحب أطراف الرماح  
أنا خارجي في الهوى لا حكم إلا للملاح  
وما أعترف قوله - أنا خارجي في الهوى - والإمامية من غلاة  
الشيعة : وهم والخوارج على طرفي نقيض .  
ومما يذكر في الاستدلال على سرعة بديته في الشعر أنه جرى  
شجار بينه وبين أبي العلاء المعري في قطع يد السارق ، فقال  
أبو العلاء :

يد تخمس مئين عسجد وديت  
ما بالها قطعت في ربيع دينار  
تناقض مائتا إلا السكوت له  
وأن تعود عولانا من النار

فأجاب المرتضى على الفور :  
 عز الأمانة أغلاها وأرخصها  
 ذل الحياة فاهم حكمة الباري  
 ثم يقال بعد هذا إن البيهقي من قصيدة لأبي العلاء في مدح  
 المرتضى ، وفيها يقول البيهقي السابق :  
 يا سائلني عنه لما جئت أسأله  
 ألا هو الرجل العاري عن العار  
 لو جئت لرأيت الناس في رجل  
 والدمر في ساعة والأرض في دار  
 فكيف يكون في شجار معه في قطع يد السارق وهو يمدحه  
 بذلك ، وكيف يكون البيهقي من هذه القصيدة ولا عارفة لها ،  
 ولكنه أبو العلاء الذي حل عليه من الشعر في الطعن في دينه  
 ما حل .  
 وقال في رثاء جده الحسين بن علي بن أبي طالب :  
 قف بالديار المفترات لعبت بها أيدي الشتات  
 فكأنن حشائم يروو هوج العاصفات<sup>(١)</sup>  
 فإذا سألت فليس ما تلى غير ضم همامات  
 عج بالطايا الناحلات ت على الرسوم الماحلات

(١) حشائم جمع حشيمة وهي الشجرة اليابسة ، وهوج العاصفات الرياح  
 الضخيمة .

واسأل عن القتل الألى  
شعت لهم يوم عصير  
وعهودهن بعيدة  
إلى أن يقول :

يا آل أحد والذر  
وميتي في نعرم  
حتى متى أنتم على  
وحقوقكم دون البر:  
ثم يقول :

قل اللالى جادوا وقد  
نامت عيونكم ولد  
وظننتم طول المدى  
هيات إن الضغن نو  
ثم يختمها بقوة :

يا صاحبي في يوم عا  
لا تسلمني بالله فرب  
شوراء والغلب الموائ  
سوى دموع الباكيات

(١) غامصات نارانه .

(٢) الترات جمع ترة وهي التور .

وتداول من حزن بقا بك بالرائى المخرجات  
لا عطائ تلك الحقا ثر من سلام أوصلا  
فقد طوين شجونا وبدورنا فى المشكلات

وهى نتيجة من تفحات الهاشميات السكيت ، وإن دلت على شيء  
فإنها تدل على أن نفوس المرتضى وغيره من العلويين وشيعتهم كانت  
تتطوى على ضغن شديد للعباسيين ومن إليهم ، مع أن العباسيين  
كانوا فى حالة يرثى لها ، وكان الغزاهم لذلك خيرا لهم مما كانوا  
يلقون فيه من مآلات ، والآخرة خير وأبقى من مثل هذه الدنيا .

## أبو العلاء المعري

نسبه ومولده :

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري التنوخي ، ينسب إلى تنوخ من بطونة قضاعة التي نزلت بالشام قبل الإسلام . وكان مولده بمرة النعمان سنة ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م

نشأته وسيرته :

نشأ أبو العلاء ببلده في بيت علم وأدب ، فدرس على أبيه علوم اللسان ثم رحل إلى حلب ليسمع الفقه والأدب على علمائها الذين شهدوا ابن خالويه ، ثم رحل إلى أنطاكية . وكان فيها مكتبة عربية نفيسة . شغف بها كثيرا . ثم سافر إلى طرابلس الشام . ومرو في طريقه إليها باللاذقية . ونزل بدير فيها . فلقى فيها راهبا درس الفلسفة وعلوم الأوائل . فأخذها عنه . ثم وصل إلى طرابلس . وكان بها مكتبة كبيرة لأن عمار الملاحين بها . فانتفع بها كثيرا . ثم عاد إلى بلده بعد أن بلغ العشرين وأتم الدرس والتحصيل . كل هذا وهو كفيف قد كف بصره وهو في الثالثة من عمره . وقد فقد أباه في الرابعة عشرة من عمره . مما يدل على قوة نفسه وبعد همته . وقد قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولم يتكسب

به كما تكسب به غيره من الشعراء . لما كان عليه من علو النفس  
والأنفة من الكذب . وكان الشاهد في ذلك البيت الكريم أنه  
في ذلك .

ولما عاد إلى بلده وهو في سن العشرين أقام بها مدة من الزمن .  
ثم رأى أن يرحل رحلة أم من رحلاته السابقة . فقصده بغداد قاعدة  
الدولة . وموطن الأدب والفلسفة . فأقبل عليه أهلها . واشترك في  
أنديتها العلمية والأدبية والفلسفية . واتصل بأديبها الشريف المرتضى  
صاحب الآمال المشهورة . وأخيه الشريف الرضي الشاعر المعروف .  
فقامت له فيها شهرة نفسها عليه علماءها وأدباؤها . ثم انقطع ما بينه  
وبين المرتضى بسبب تعصبه على المتأخرين . وتعصب أبي العلاء له .  
فترك بغداد إلى بلاد أسفا . ولزم بينه فيها إلى آخر حياته . مؤثرا  
الغزاة على الخلطة . وسمى نفسه رعين الحسين - العبي والمثل -  
ولكن عليه وأديه دفعا إليه طلاب العلم والأدب . فوجد عليه الطلاب  
والأدباء والرواة والمفلسفة . واشتغل معهم بالتدريس والتأليف  
وفرغ من الشعر . إلى أن توفي سنة ٤٤٩ هـ : ١٠٥٧ م .

#### مؤثرته في الشعر والنثر :

أبو العلاء من مدرسة أدب تمام في إظهاره لخطابة اللفظ ودقة المعنى .  
ولكنه يمتاز على شعراء هذه المدرسة بتأديته لرسالة الشعر في عصره .  
إذ فتح فيه قننا جذبا بالكلام على الطوائف . ووسائل الاجتماع .  
ومعادات الناس وأخلاقهم . ونظام القول والقوانين والشرائع



والأدين . ولم يعرف هذا الشاعر عربى قبله . وبه يستحق الزعامة على شعراء هذه المدرسة .

ومع هذا شارك شعراء عصره فيما ائتمروا به . ولم يقصر عنهم فيما تناولوه من أبواب الشعر من مدح ورتاء وما إليهما . وشعره في المدايح والمراني وبقية أغراض الشعر أرق من شعره في النقد والفلسفة . فان ما ظله من هذا الشعر كان بعد رجوعه من بغداد وحبه نفسه في بيته . فانظم في سيرته وشعره ونثره أشياء لم يلزمها من قبل . وذلك حين راض نفسه على تكلف المشقة واحتمال الكروء . وقد ضمن شعره من هذا القليل ديوانه الذى سماه لزوم مالا يلزم . إذا التزم في القافية الشعرية أن تكون على حرفين . مع أنه لو أسقط أحدهما لما كان متجاوزا قواعد القافية . وقد سبق كثير صاحب

عزة إلى مثل هذا في تأليفه لئلي مطلعها :

خيلى هذا ربح عزة فاعقلا

- فلو صيكا تم إيكيا حيث حلت<sup>(١)</sup>

فأضطر ذلك الصنع أبا العلاء إلى المبالغة في استعمال الغريب . ليقوم له بما يحتاج من القافية . حتى حبس أفكاره . وأتتك معانيه . فجاءت ألقاظه غريبة . وأساليبه معقدة .

وقد يكون مع ذلك السبب الذى ألجأه إلى سلوك ذلك الأسلوب في شعره من هذا النوع سبب آخر كان له أثره في الفلاسفة قبله . إذ تعدوا تعمية نثرهم في الفلسفة . حتى لا يفهمه من يؤلب الناس

(١) فلو صيكا بناية فخرس وهي اللقطة النارية .

عليهم من الفقهاء ومن إليهم . فليجأ أبو العلاء مثلاً إلى تعمية شعره  
بتلك الالتزامات حينئذ سلك به طريق الفلسفة . واستخدم الشعر فيها  
كما استخدم الناس فيها قبله . وبقتضينا الانعاض بعد هذا ألا نحسب  
ذلك عليه . لأنه أراد من عمد وهذا الغرض . واعتذر في مقدمة  
ديوانه مما عسى أن يقع فيه مما لا يوافق أساليب الشعراء .

وله ديوان آخر سماه سقط الزند ، شنته شعره قبل أن يعبر  
بنفسه هذا المسير ، ويشتمل على شعره في المدح والتعظيم والوصف  
والرثاء وغير هذا من أغراض الشعر .

أما نثره فقد كتب بعضه أيضاً قبل عزائه ، وكتب بعضه الآخر  
بعدها وكان حاله فيما كمال شعره أيضاً تعمية وإثارة لفظ الغريب  
والسجع الثقيل ليقيم من كل هذا أسواراً تحجب أغراضه عن ليس  
من أهلها وأمم ما كتبه في النثر : رسالة الغفران ، وقد كتبها بعد عزائه  
ويقال إن داني السكاتب الإيطالي تأثر بها في تصنيفه (١) وتتلخص  
في أن شخصاً خيالياً سماه علي بن الفارح . قام من قبره يوم البعث .  
فلت في الوقت طويلاً حتى أعياء الحر والظلمة . ففكر في أن يتدع  
سدة الجنة بما كان يتدع به الناس في الدنيا من الشعر . فأنشأ  
القصائد في مدح رضوان فلم يقم منها شيئاً لأنه لا يتكلم العربية .  
ومضى في هذا النوع من الحيلة والكلام قبل دخوله الجنة وبعد إلى  
نهاية رسالته . ولا شك أن هذا النوع من الخيال الذي فيه خداع

(١) رواية له فيها التحم على نثر رسالة الغفران .

سدنة اللجنة وما إلى ذلك لم يكن مألوفاً إلى عصر أبي العلاء فكان وقته شديداً على بعض الناس .

• وإذا أردنا أن نرجع هذا التحول الجديد الذي نراه أبو العلاء في شعره ونثره إلى أسبابه وعوامله وجدناه يرجع إلى هذه الأسباب :

• ١ - تربيته التي ضم فيها إلى درس اللغة والأدب علوم الأوائل وشرائعهم ودياناتهم . فأمكنه أن يتوخى بشعره في أمرها وبسبك به ممالك النقد الذي اكتسبه من دراسة الفلسفة والمنطق .

• ٢ - فساد عصره ديناً وسياسة وأخلاقاً وماديات . فقد أدرك انحلال الدولة العباسية . وانقسام المسلمين انقساماً شديداً لم يبق لهم معه من الإسلام إلا اسمه ورمحه فبدأ له هذا مادة ذلك الشعر الذي شرح فيه ذلك الفساد الديني والخلقي والسياسي .

• ٣ - ما لقيه من عنت الناس وسوء عشرتهم . ومن توالي الخن عليه من فقد عصره في صغره وموت أبيه في شبابه وأشياء ذلك .

#### عقيدته الدينية :

• ومثل هذا لم يكن من المنتظر بعده إلا أن يتم أبو العلاء في عقيدته ؛ لأنه هاجم زمانه في ماداتهم وأخلاقهم ونفاقهم في دينهم بما جاء من ذلك في شعره ونثره وجري فيه على نحو من الخيال والتفكير لم يكن مألوفاً قبله . وضم إلى ذلك أنه بعد عزله حرم على نفسه لحم الخسوان وما يخرج منه . واكتفى بالنبات والتفاكهة

والديس (١) وعاش عزاً إلى أن مات . وأوصى أن يكتب على قبره :  
هذا جناح أبي علي وما جئت على أحد

واجتناب أكل الحيوان وما يخرج منه عقيدة دينية يراها براهمة  
الهند فري أبو الغلاء من أجل ذلك كله بالإلحاد . وقد يكون  
أبو الغلاء ملحداً في نفسه . وهذا أمر بينه وبين الله . ولكن ذلك  
كله لا يؤخذ منه إلحاده لأنه ما كان منه في رسالة القرآن من نحو  
ما سبق ليس إلا خيالاً ودعاية أدبية . ومثل هذا يؤخذ به الشخص  
في نفسه لا في عقيدته فيكون به آتياً مثلاً لاملحداء . وكذلك عزله  
عن الناس . وشرعيته على جماعتهم . وطلعه في دينهم وأخلاقهم  
وعاداتهم . لأنهم كانوا يستحقون منه لما ساروا إليه من الفساد  
الديني والخلق الذي انتشر فيهم . وجعلهم مسليين إنما لا فعلاً .

وكذلك ما كان من تحريره أكل الحيوان على نفسه . لأنه كان  
يرجع إلى زهد أو نحو . ولم يكن يقصد به خروجاً على دينه . أو  
تأثراً بعقيدة هندية أو غيرها . ومثل هذا إذا أخذ عليه فإنه  
لا يصل إلى العلم في عقيدته . لأنه أقرب إلى أن يكون تشدداً  
لا اعتدالاً .

وكذلك ما ينسب إليه من أشعار كثيرة لم يصحت تثبت ما يرى  
به من الإلحاد . كهذين البيتين :

دين وكفر وأنباء نقص وقرأ

ت ينص ونوراة وإنجيل

(١) هو مايلد بانار من نصير الغتب والمغربون ونحوها .

#### في كل - جيل أبايل ملفقة

فهل تغرد يوما بالهدى جيل

لأن مثل هذا الشعر مرسوم عليه في شعره نكابة به من حساده .  
وعين هاجهم في تلافهم الديني ونسادم الخلق . وكان من السهل  
دس الشعر على الشاعر في هذا العصر الذي لم يكن فيه مطابع ولا  
غيرها مما ينقل به الآن مثل هذا الدس لأنه لو صح هذا عنه لنقل فيه  
حكم الردة كما نقل في كل زنديق إلى عصره . وكذلك بعد عصره  
إلى عصرنا الحديث . إذ أصبح الإلحاد فيه مباحا . ومع هذا يجد من  
يجاهر به من مقاومة الناس ما يضطر معه أن يخفيه . فكيف يجاهر  
أبو العلاء بمثل ذلك في عصره ولا يخشى أهله . على أنه يكفي في عدم  
صحته أنه عاش بين تلاميذ من خيار المسلمين . ثم مات غرقا على  
قبره نحو سبعين شاعرا يثنون عليه . ويؤجسون بعلمه وأدبه وقضيه .  
مختارات من شعره :

قال في الفخر من ديوانه : سقط الزند :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل

عفاف وإقدام وحزم وتائل (١)

أعتدى وقد مارس كل خفية

بصديق واش أو يتيب سائل

تعد ذنوبي عند قوم ~~كثيرة~~

ولا ذنب لي إلا العلاء والنضائل

(١) تائل عطاء .

كَأَنِّي إِذَا طَلْتُ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ  
 رَجَعْتُ وَعِنْدِي لِلْأَنَامِ طَوَائِلُ<sup>(١)</sup>  
 وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَنَ لِمِ  
 بِإِخْفَاءِ شَمْسِ ضَوْفِهَا مِتْكَامِلِ  
 يَمِ الْفَيَالِي بَعْضُ مَا أَنَا مُضْمَرُ  
 وَيَنْقَلِ رِضْوَى دُونِ مَا أَنَا سَامِلُ<sup>(٢)</sup>  
 وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْآخِرَ زَمَانَهُ  
 لَأَتَّ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ  
 وَإِنِّي جَوَادٌ لَمْ يَحِلْ لِحَسَامِهِ  
 وَتَنْصَلُ بِيَانُ أَغْنَتْكَ الْعَوَائِلُ<sup>(٣)</sup>  
 فَإِنْ كَانَ فِي لَبْسِ الْفَقْرِ شَرَفٌ لَهُ  
 ثَمَا السَّيْفِ إِلَّا عُجْدَهُ وَالْحَسَائِلُ  
 وَلِي مَنَظِقٌ لَمْ يَرْضَ لِي كُنْهَ مَنَزَلِ  
 عَلَى أَنِّي بَيْنَ السَّيَاحِينَ نَازِلُ<sup>(٤)</sup>  
 لَهْدِي مَوْطِنٌ بِشَهَادَةِ كُلِّ سَيِّدٍ  
 وَيَقْصُرُ عَنْ إدْرَاكِهِ الْمُنَازِلُ

(١) طَلْتُ طَاوَلْتُ وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ طَوَّالٌ جَمْعُ طَوَّالٍ وَهُوَ الْقَدْحُ .  
 (٢) رِضْوَى : جَبَلٌ .  
 (٣) النَّصَلُ : السَّيْفُ ، وَالْعَوَائِلُ جَمْعُ صَاقِلٍ مِنْ صَقَلِ السَّيْفُ جَلَدَ وَفَضَهُ .  
 (٤) السَّيَاحِينَ : السَّيَاحُ .

ولما رأت الجهل في الناس فاشيا  
تجاهلت حتى ظن أنى جاهل  
فواجباكم بدعى الفضل ناقص  
ووا أسفاكم يظهر النقص فاضل  
وكيف تمام الطير في وكناتها  
وقد نصبت للفرقة بين الحبال<sup>(١)</sup>  
إذا وصف الطائي بالبخيل مادر  
وعير قسا بالهامة باقل<sup>(٢)</sup>  
وقال السبي للشمس أنت ضليقة  
وقال الدجى لتصبح لوتك حائل<sup>(٣)</sup>  
وطاولت الأرض السماء سقاعة  
وقاخرت الشهب الحمى والجنادل  
فيا موت زر إن الحياة ذميمة  
ويا نفس جدى إن دهرك هازل  
وهذا يدل على علو نفس لا تنظر له في عصره ، وعلى شكوى صورية  
من هذا العصر وقال في رثاء وهو غاية ما وصل إليه الشعر العربي في  
هذا الباب :

غير نجد في ملهى واعتقادي نوح بالك ولا ترنم شادي

(١) الفرزدق : نبيان .

(٢) الطائي : حاتم .

(٣) السبي : كوكب حامي من بنات نمرش .

وشبه صوت النعي إذا قبر  
 صاح هذي قبورا تملأ الرح  
 خفف الوطء ما أظن آدم ال  
 وقبيح بنا وإن قدم الع  
 سر لن اسطعت في الفواء رويدا  
 رب لحد قد صار لحد صارا  
 ودفين على بقايا دفين  
 تعب كايا الحياة فما أتع  
 إن حزنا في ساعة الموت أشعا  
 خلق الناس للبقاء فضلت  
 إنسا يتقلون من دار أعمى  
 والفصيدة طويلة ومنها قوله :  
 بأن أمر الإله واختلف لنا  
 والذي حارت البرية فيه  
 فالقريب القريب من ليس بقدر  
 ومن شعره في ذم الحياة السياسية في عصره :  
 مل المقام فك أظن أمة  
 أمرت بتسير صلاحها أمراؤها  
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها  
 فعدوا مصالحها وهم أجراءها

(١) يعني بقا، أرواحهم بعد أجسادهم لحساب الآخرة كإحياء في البيت بعده .



فالحاكم عنده أجير لا مالك يصرف في رعيته تصرف الملاك ، وهذا  
أمر جاء به الدين قبل أبي العلاء ، ولكن الشعر العربي لم يمس  
به قبله ومنه في ذم الحياة الدنيوية :

رويدك قد غررت وأنت حمر      بصاحب حيلة يغلط النساء<sup>(١)</sup>  
يحرم فيكم العبياء صبحا      وبشرها على عهد مساء<sup>(٢)</sup>  
يقول لكم : عدوت بلاكساء      وفي لقاءها رهن الكساء  
إذا فعل الحق ماعنه ينهى      فمن جهتين لا جهة أساء  
وقال في الرد على الباطنية الفاتحين بالإمام المنتظر :

يرمى الناس أن يقوم إمام      ناطق في الكتيبة الخرساء<sup>(٣)</sup>  
كاذب الظن لا إمام سوى العقد      بل مشبرا في صبحه والنساء  
فلذا ما أظعته جلب الرد      معة عند المسير والإرساء

وقال في قدم الزمان وعدم تناهي المكان كما تذهب الفلاسفة :

ومولد هدى الشمس أعيانك حده

وخسير لب أنه متقاد<sup>(٤)</sup>

وأيسر كون تحت كل عالم

ولا تدرك الأكوان جرد<sup>(٥)</sup> صلام<sup>(٥)</sup>

(١) رويدك : مهلا .

(٢) العبياء : الخمر .

(٣) الكتيبة : الفرقة من الجيش .

(٤) لب : عقل .

(٥) جرد صلام : خيل تتبدد الخافر .

إذا هي ميت لم تعد ورادها  
تظاير والأوقات ماضى وقادم  
فما آل منها بعد ما ناب غائب  
ولا يعدم الحين المجدد عادم  
وقال أينما في هذا النحو من الشعر الفيلسوف :  
أستحي من شمس النهار ومن  
قر الدسي ونجومه الزهر  
يجري في قلبك المدار إذا  
ن الله لا يحشون من يسر<sup>(١)</sup>  
ولمن بالنعظم في خلدي  
أولى وأجدر من هي نور<sup>(٢)</sup>  
سبحان خالفين لست أقدر  
ل الشهب كاية مع الدهر<sup>(٣)</sup>  
لا بل أفكر هل رزقن حبي نجا يموت به من الطير<sup>(٤)</sup>  
أهل لأتاعا الحصان يذئ الفد كير من قرني ومن صبر<sup>(٥)</sup>  
وهو في هذا يشك فما يذكر الفلاسفة من أن الكواكب حيا  
وعقلا . وفيما ورد في الأساطير من أنها تتصاهر وتزواج :

- (١) البرد : انطاع النفس من الأعياء .  
(٢) نور : قرين .  
(٣) كاية : يقال رجل كاي ينتهب الطير فلا ينتهب .  
(٤) حبي : عقلا . قرني : ينتهب .  
(٥) الحصان الطاهرة العذبة .

وكان يسيء الظن بالمرأة ويتبع عن تعليمها ، كما قال :

علمون السيج والقرنل والرد

ن وخلوا مكتابة وقراءة<sup>(١)</sup>

فصلاة الفتاة بالحسد والإخ

الاص تجزى عن يونس وبراءة<sup>(٢)</sup>

وهذا جود لا يليق بما دعا إليه من إصلاح في غيره ونسبه  
إليه شعر كثير في تحريم لحم الحيوان أشك في صحته ، لما قدمت  
من أنه امتنع عنه لسبب خاص به . ولم يشاركه فيه أحد من  
اللتفين حوله من تلامذته وغيرهم ، ولو دعاهم إليه بمثل هذا الشعر  
يشاركه على الأقل فيه قليل منهم ، ومما نسب إليه في ذلك :

تدوت مريض العقل والدين خالقي

للتسع أبناء الأمور الصعاج

فلا تأكل ما أخرج البحر طامسا

ولا تنج قوتا من غريض الدبائح<sup>(٣)</sup>

ولا ييض أملت أرادت صريحه

لأطمانا دون القواني الصرائح<sup>(٤)</sup>

ولا تنجين النير وهي غوائل

بما وضعت فالظلم شر القبايح

(١) الزمخ: الدزل أيضا أو شرب منه.

(٢) يني سورة يونس وسورة براءة .

(٣) غريض : طري .

(٤) القواني : الحسان من النساء .

مسحت يدي من كل هذا فليتني  
أجبت لثاني قبل شيب المسامح<sup>(١)</sup>

فقطع هذا الشعر بما لا يمتصه عصر أبي العلاء ، وكذلك ما ورد بعده  
من الشعر لا يمكن أن يظهر في زمن أبي العلاء منسوباً إليه ، وقد  
ظهرت فيه رسائل إخوان الصفا في علوم الفلسفة وليس فيها مثله ،  
ومع ذلك لم يمكن أن يظهر معها أصحابها ، حتى اضطرب الناس  
بهذا في أمرهم إلى عصرنا .

#### موازنة بين أبي العلاء والمتنبي :

ويمكن في ختام الكلام على أبي العلاء إيراد هذه الموازنة بينه وبين  
المتنبي ، لأن كلا منهما كان شاعراً حكماً عفيف اللفظ لا يعرض  
للجش ولا للخطا ، وإن كان المتنبي نسب جيل وثني من الهجاء  
للقدح دون أبي العلاء ، وكان المتنبي لا يفتأ بالقياس والقياس لنفسه  
بنفسه ، وتبعه أبو العلاء في هذا أول أمره ثم عدل عنه ، القوله في  
بعض شعره — فبأننا لأخون ولا أغان — فاستعمل هاتين من غير  
اسم الإشارة ، مع أن هاتين لا تدخل على الضمير إلا معاً ،  
فيقال هاتذا ويمكن إجمال ما بينهما من الفروق فيما يأتي :

( ١ ) شعر المتنبي واضح اللفظ ناصح الأسلوب بخلاف  
أبي العلاء .

( ٢ ) أبو العلاء حكيم دارس استدل الفلسفة من مزاياها .

(١) المسامح: جمع مسحة وهو شعر جاني الرأس .

العملية المقصورة على الكتب إلى حيث تترك طريق الشعر إلى  
القلوب . بلا فرق بين ما كان منها في الأخلاق . وما كان في  
الطبيعة والرئاسة والأروحية . والثاني تكلف الحكمة ولم يتجاوز  
يشعره ما تعلق منها بالأخلاق .

( ٣ ) الثاني يحب للدنيا متكسب بشعره بخلاف أبي العلاء .  
وهذا ينتمى ما كتبه في هذا العصر . وكنت أود أن أصل  
بالكتابة فيه إلى ما وصلت إليه في العصور قبله . ولكن ما كل  
ما ينتمى المرة بتركه .

وهذا بحثان أدريان ألحقتهما بهذا الكتاب ليزيدا شيئا في عدد  
صفحاته :

( ١ ) القرسان الشعراء في الجاهلية والإسلام .

( ٢ ) قصة سعد وسعاد .

إلى بحوث أخرى أدبية .

## ملحق بالكتاب

### الفرسان الشعراء في الجاهلية والإسلام :

لم يكن للعرب في الجاهلية دولة تفرض حكمها عليهم . وجاء سلطانها أفرادهم وقبائلهم . ويعتدى بها الضعيف من القوى . ويلجأ إليها في أخذ حقه منه عند اعتدائه عليه . نعم كان لهم دولة المفادرة بالعراق ودولة القساسنة بالشام . ولكن حكمها لم يعتمد إلى قلب البلاد العربية . ولم يعمل إلى البادية الكبرى التي كانت قبائل العرب تعيش فيها طليقة من كل قيد تنقيد به من حكم أودين . وهذا إلى أن كلا من الدولتين كانتا متضادتين بسبب وقوع دولة المناذرة في نفوذ دولة الفرس ، ووقوع دولة القساسنة في نفوذ دولة الروم ، وما أدى إليه هذا من وقوع الحروب بين الدولتين ، واشتباكهما في واقع من الحروب بين دولتي الفرس والروم ، وانقسام العرب على أنفسهم في مناصرة الدولتين ، واضطراب جبل الأمن في بلادهم بسبب هذه الحروب التي لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل ، وإنما كانت مصالحتهم أن يبقوا موقف الحياء بين الدولتين الطامعتين في حكم بلاد العالم اللتانستين في هذا الطمع كما تتنافس الدولة الكبرى الاستعمارية في عصرنا ، وأن يعملوا على تقوية نفوسهم بالاتحاد والأخذ بأسباب التوسع ، حتى لا يقعوا فريسة لإحدى الدولتين

المتنافسين ، ولا يكونوا بأنفسهم على انقسام سببا في تكية بلادهم بالحكم الأجنبي .

ولسكن العرب في جاهليتهم لم يعرفوا قائمة ووقوفهم موقف الحياذ بين الدولتين ولا مائدة اتحادهم وعملهم على تقوية نفوسهم بازاء طمع الدولتين في الاستيلاء على بلادهم ، حتى انقسموا فيما بينهم انقساماً شديداً في حواضرهم ووادعهم وصار أمرهم إلى فوضى شاملة ، يعرفون فيها ما بينهم من رابطة الجلس ، ومن رابطة الوطن ومن رابطة اللغة ، وحتى ضاع في هذا الانقسام الشنيع أقوى دولة عربية بينهم ، وهي الدولة الحميرية التي كانت هي الدولة العربية الموحدة التي لا تفتع لحكم أجنبي ، فاستولت عليها دولة الحبشة بحريض دولة الروم ، لما كان بينهما من الاتحاد في الدين ، كان هذا سببا في لجوء أمير حمير - سيف بن ذي يزن - إلى دولة الفرس لإنقاذ بلاده من دولة الحبشة ، فلما لجأ إليها ساعدته على استرداد بلاده ، ولسكنها لم تستردّها له إلا لتعرض لحكمها عليه ، ثم تولى عليها بعده ولادة من الفرس .

وبهذا وقعت البلاد العربية الجنوبية في الحكم الأجنبي الفارسي كما وقعت البلاد العربية الشمالية في الحكم الأجنبي الروسي ، ولم يبق للعرب إلا يوادعهم التناحلة في نجد والحجاز ، تنازعاً فيما بينها في قحط وقفر ، وتتطاحن فيها على لقمة العيش وبلا يكون أكثر وسيلة للعيش فيها إلا الاعتماد على السلب والنهب ، يجعله ما هم فيه من جهل وقفر عملا مشروعا ، ويغريهم عليه ما هم فيه من فوضى ليس بها سلطان

دافع ، ولا دين وأزع ، وإنما كان السلطان فيها لقوة الرد ، والقوة  
القبيلة ، فيعتمد القوي على الضعيف ، ويستحل ما ينهبه منه بشرع  
القوة ، بل يمدد مفخرة من المفخرة ، ويضفي به في أشعاره ، ثم  
يشجع هذا بينهم ، فينافس بعضهم بعضاً فيه ، وتصير القروسية  
وأصحابها من أقوى مظاهره ، بل تصير المثل الأعلى لنبل الشجيرة ،  
وكسب الجيد ، ويصير ما تعتمد عليه من السلب والذهب مفخرة  
المفخرة إذا كان صاحبها فارساً كريماً يذل ما يسلبه وينهبه لمن  
يقصده من طلاب العطاء ، فلا يبتذل بشيء منه عليهم حتى لا يبقى  
منه شيئاً ، ولا يجد إلا أن يعود إلى شن الفارة ، ليكسب لطلاب  
العطاء منه ما يرفع من شأنه بينهم ، حتى يصير مقصد الزوار من كل  
جانب ويصير بيته مليحاً لسكل فاسد ، وينظر إلى مواصلة الفارات  
ليرضى هؤلاء الطامعين في سببه وتبذره .

وكانت قريش هي القبيلة الوحيدة التي تعتمد على التجارة في  
رحلتها المعروفة بين القبائل العربية . فلم يرش هذا شاعرهما  
عبد الله بن الزبير . وقال في دمه :

ألهي قريشاً عن الجيد الأساطير ورشوة كاترشى السفاير<sup>(١)</sup>

وأكلها اللحم بمحا لاخلط له وقولها رحلت عير أتت عير

وكان الفرسان الشعراء في الجاهلية أنظير فرسان العرب . وكان  
بعضهم من طبقة الأنصار من أبناء رؤساء القبائل ونحوم . وبعضهم  
من طبقة سوقة الناس . وهؤلاء كانوا يسمون الصماليك . جمع

(١) السفاير : السائرة .



صعلوك وهو في اللغة الفقير . ولعل هذا الاسم لم يكن محبوباً في الجاهلية . ولكن الفرسان الشعراء من الصعاليك رفعوا منه في أشعارهم . وأعلوا من قيمته بينهم . لأنهم كانوا يغيرون على القبائل فيجمعون المال الكثير ثم يفرقونه على من يلوذ بهم حتى لا يبقى شيء منه بأيديهم . إشاراً لمسا ألفوه من عبثة الصعلكة . وحباً في مناسرات الفزو والذهب . ليتحدث الناس بشجاعتهم وبلوتهم . وبما كان لهم من آداب ومناخري صعلكتهم . وقد أشار شاعرهم إلى بعضهم في قوله :

وقد صعلوك يساورهم

ويضي على الأحداث والدهر مقدما

ففي طلبات لا يرى الخصى ترجه

ولا شيعه إن تالمسا عد مقبنا

إذا ما رأى يوما مكارم أخرجت

يجمع كبراهن تحت صمما

يرى رعبه ونبله وعجته

وذا أشعل غضب الضربة عندما (١)

وأختاه سرج فائر ولجامه

عتار أخى هيجا وطرفا مسوما (٢)

(١) عندما : قلدا .

(٢) فائر : يقال فئر الفراء منم بعته إلى بعش . والأمر لازم . والطرف : القرس الكريم .

فذلك إن يهلك خفى تناؤه

وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذنا

ومن أشهر الفرسان الشعراء من الصعاليك عروة بن الورد العيسى  
وكان يلقب عروة الصعاليك : لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم  
إذا أخفقوا في غزواتهم . ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وكان  
الناس إذا أصابهم سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير  
والضعيف . فساكن عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من  
عشيرته في الشدة . ثم يحفر لهم الأسراب . ويكلف عليهم الكنتف  
ويكسبهم . ومن قوى منهم : إما مريض يرأ من مرضه . أو ضعيف  
تنوب قوته . خرج به معه فأغار على القبايل . وجعل لأصحابه  
الباقيين في ذلك نصيبا . حتى إذا أخعب الناس وألبتوا ونهت  
السنة ألقى كل إنسان بأهله . وقدم له نصيبه من غنيمة إن كانوا  
غنموها . فرما إلى الإنسان منهم أهله وقد استغنى .

ومما ظله عروة في أدب الصعاليك :

لحق الله صعلوكا إذ اجن ليله

مضى في المشاش ألفا كل عجز<sup>(١)</sup>

بعد الغنى من دهره كل ليسة

أصاب قراها من صديق ميسر

ولله صعلوك صليحة وجهه

كضوء شهاب القابس للصور<sup>(٢)</sup>

(١) المشاش : رأس السهم الجان .

(٢) القابس : مشعل النار .

وقد أعلّى هذا من شأن عروة عند العرب في الجاهلية ، وكذلك في الإسلام حين صاروا فيه إلى الاعتزاز بجاهليتهم ، وما كان يعدّها من مفاخرهم ، حتى قال عبد الملك بن مروان فيه : من زعم أن حاتمًا أصبح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وقال أيضا : ما يسرى أن أحدا من العرب ممن ولدني إلا عروة بن الورد ، لقوله :

ولّى امرؤ عاقى إنائي شركة  
وأنت امرؤ عاقى إنائك واحد<sup>(١)</sup>  
أتمرأ مني أن سمعت وأن ترى

يجمسى شحوب الحق والحق جاهد  
أفرق جسمي في جسوم كثيرة  
وأحسو فراح الماء والماء يارد

وكذلك كان رأي أبي جعفر النعمان في عروة بن الورد ، وهو في بني العباس يشبه عبد الملك بن مروان في بني أمية ، فكان معجبا به وبأخياره في التلصص والصلصلة ، وليس هذا بكثير على أمثالها من جارية للولك في الإسلام ، ومن أخذ الحكم فيه بقوة السيف ، كما كان عروة يعتمد في معيشته على هذه القوة ، وينهبها مال الناس نهباً ، فهذا نهب للمال ، وذلك نهب للحكم ، وكلامهما بما لا يجوزه الإسلام .

وكان عروة ينزل على يهود بني النضير بجوار يثرب - اسم المدينة قبل الإسلام - فيمكث بينهم ما يمتكث ، ويبدّر ما يبدّر من القبائل فيما أقاموه هناك من حانات الخمر ودور الدعارة ، وكانوا يقرضونه

(١) الناق : الخائب .

يربهم القاحش إذا احتاج ، وبإيهم ما ينسب إذا غتم ، فيأخذون ما يقرضونه له بالربا القاحش أضعافاً مضاعفة مما ينسب ، ويدون له ولأمثاله من الغربيين في العرب جبل الفساد ، ليصلوا إلى أغراضهم في نشر الفقر والجهل وما إليهما في بلاد العرب ، ويمكنهم الاستمرار في استغلال أهلها وتب أموالهم بالربا القاحش وغيره ، ولم يكن يعلم إلا الله ما يكون مصيرها بين أبنائها الغربيين وأولئك اليهود الجشعين لو لم يتداركها بالإسلام الذي انتشأ من ذلك الجهل والفساد وقضى على ذلك التطريب والتب من فرسانها الفسادين واليهود والطامعين .

ولم يكن عروة ينسب المال وحده من القبائل ، بل كان ينسب النساء أيضاً ، فيسلمن حريتهن ويبيعن في سوق الرقيق ، وقد اختار الجيلة لنفسه فينخذها أمة ، ويضيفها إلى نسائه الأحرار والإماء ، كما ينسب مرة امرأة من كنانة يقال لها سلمى حين أعار على قومها ، فأعتقها وأتخذها لنفسه ، فكثرت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، وكان يعتقد أنها أرغب نسائه فيه ، لأنها كانت معجبة بشجاعته ، ولكنها كانت تضرر ألساً في نفسها لحريتها التي فقدتها ، لأنها لم تخرج بصفته لها عن كونها مولاة لآخرة أصيلة ، وكانت ضرائرها ينتفرون إليها باحتقار من أجل ذلك ، فيثرون في نفسها من الألم ما تفضل معه أن تسترد حريتها في قومها على عروة وأولادها منسوبة .

فأرادت أن تحتال عليه لتلحق بقومها وتسترد حريتها ، فقالت له : لو حججت فأمر على أهلي وأرام . فخرج بها إلى مكة ، ثم قصد

يقرب ليعز على يهود بني النضير ، وكان هذا لما لهم كما سبق ، وكان  
أهلها يتناطونهم أيضا ، لأنهم تمكنوا بندها لهم وراثتهم من بسط  
سلطانهم الاقتصادي على جميع العرب ، فالتفت سلمى بقومها عندهم ،  
فقاتلهم : إن عروة خارج قبل أن يخرج الشر الحرام ، فقاتلوا  
إليه وأخبروه أنك تستحيون أن تكون امرأة منك معروفة النسب  
صبيحته سبية ، والمندوني منه ، فإنه لا يرى أنى أفرقه ولا اختار  
عليه أحدا .

فاتوا عروة فسقوه من شراب أولئك اليهود حتى نمل ، فلما نمل  
قال له : نادنا بصاحبتنا ، فإنها وسيلة النسب فينا معروفة ، وإن  
علينا سبة أن تكون سبية ، فإذا جارت إلينا وأردت معاودتها فاطلبها  
إلينا ، فإننا نتكلمك .

فقال لهم عروة : ذلك لكم ، ولكن لي الشرط فيها أن أخبروها ،  
فإن اختارنني انطلقت معي إلى ولدها ، وإن اختارنكم انطلقتن  
بها فلما نادوه بها خبروها بينهم وبين فاختارنهم ، ثم أقبلت عليه  
فقاتلته : يا عروة ، أما إني أقول إليك وإن فارتك الحق ، والله  
ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على رجل خير منك ، وأغض  
طرفاً وأقل شحاً ، وأجود بدأ ، وأحس لحقيقته ، وما مر على  
يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلي من الحياة بين قومك ،  
لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة  
كذا وكذا . إلا سمعته ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً (١)  
فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم .

(١) نسبة إلى غطفان وكل بنو عبس منهم .

وبروي أيضا أنه سبي امرأة من بني عامر فقال لها ليلى بنت شعواء  
فكثت عنده زمانا وهي تربه أنها تحبه ، ثم استأذنته أهلها ، فلما أراد  
الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قوما بالقتل ، فانصرف  
عنهم وأقبل عليها فقال لها : يا ليلى ، خيري صواحبي عني كيف أنا .  
فقاتلته : ما أرى لك عقلا ، أتراني قد اخترت عليك وتقول خيري  
عني . فقال في ذلك :

نحن إلى ليلى بنو بلادها  
وأنت عليها بالملأ كنت أقدرها  
وكيف ترجيها وقد حيل دونها  
وقد جاوزت حيا بئيماء منكرا

وكان بنو عامر قد أخذوا امرأة من بني عيس يقال لها أسماء  
بدل ليلى ، فلم تلبث عندهم إلا يوما حتى استنقذها بنو عيس منهم  
فبلغ عروة أن عامر بن الطفيل نثر بأخذه لأسماء ، وكان من فرسان  
العرب أيضا ، فقال يعمرم بأخذه لليلى بنت شعواء :

إن تأخذوا أسماء موفت ساعة  
فأخذ ليلى وهي عفراء أعجب  
ليسا زمانا حسبا وشابها  
وردت إلى شعواء والرأس أشيب

فهذه كانت حالة فرسان العرب في جاهليتهم ، وهذه كانت مفاخر  
الفرسان الشعراء منهم ، كان بعضهم ينهب بعضا ، وكانوا  
لا يورعون عن نهب النساء مع الأموال ، وكانت هذه العنجهية تغلب

إلى خضوع معيب لليهود الطامعين فيهم ، لأنهم كانوا يرضون  
شبهاتهم بوسائل اللهو من الخمر وغيرها ليزيدوا في مفاسدهم ،  
فكانوا يعيشون في هذا الضلال كالبهائم ، بل كانوا أضل سبيلا  
وأقبح ضللا .

ويمكننا أن نلخص أسوأ هؤلاء الفرسان فيما يأتي :

١ — أن حروبهم كانت عدوانية لا يعملهم عليها إلا شهوة  
القتال ، وإلا المباحة بالقوة والشجاعة في أشعارهم ، وإلا المتأخرة  
بتبذير المال وهتك أعراض النساء .

٢ — أن حروبهم كانت لأغراض شخصية كما يفعل اللصوص  
سواء بسواه ، فكان ما يظنونه القضاء شبهاتهم ومذاتهم ، فإذا  
أشركوا غيرهم فيه فإنما يشركون غريبين مظلومين ، كما كان يفعل  
عروة بن الورد مع صماليكة .

٣ — أنهم كانوا أصحاب السلاطين في بلاد العرب ، لأنهم  
كانوا حاة القبائل في تفرقها وتجارها ، فكانوا يعيشون في الأرض  
فسادا ولا يخشون سلطان حكومة تردعهم ، وليس لهم وازع من  
دين يردعهم عن فسادهم .

٤ — أنهم كانوا يمدون إغراء على الفساد من عناصر يهودية  
تساعدهم بأغراض المال بالربا عند حاجتهم ، وتزيد في فسادهم  
وطغيانهم بما تقدمه لهم من وسائل اللهو الحرام من خمر وغيرها ، إذ  
كانت في ديارها تدوات الفساد ، من حانات الخمر ، إلى بيوت البغاء ،  
إلى غير هذا من ضروب الفسق التي كانوا يهاقون عليها تنافا

الفراس على النار ، ليبيعوا ما يديونه في غاراتهم بأجناس الأمان ،  
وينفقوه في الحر ونحوها بأعلى الأمان ، حتى لا يخرجوا منها بشئ .  
من تين ما نبيوه ، وبعثوا أيديهم إلى أسعابها من اليهود ليقرضوهم  
بالربا الفاحش ، ثم يعودوا إلى الذب والسلب ثانية ، ليعودوا إلى  
تلك التدوات الناسدة ، ويلدوا بعض ما عليهم من الديون ، وينفقوا  
في الحر وغيره ما ينفقون ، حتى تتراكم ديون اليهود عليهم ، ويصبروا  
ألعوبة في أيديهم ، يحركونهم كما يشاءون ، ويستعبدونهم في قداء  
مآربهم في بلاد العرب كما يشتهون .

فلما ظهر الإسلام لم يرض عن هذا الفساد كله ، وعمل على  
إصلاحه والقضاء على أسبابه ، وكان من أهمها تفرق العرب إلى  
قبائل متجارية يظهر فيها سلطان أولئك الفرسان ، فعمل على  
توحيدها ليكون منها أمة واحدة تجتمع على دين واحد ودولة  
واحدة ، حتى لا يكون هناك سلطان فيها لغير دينها ودولتها ، ولا  
يكون لها فرسان متمردون كفرسانها في الجاهلية ، بل يكون لها  
فرسان خاضعون لدينها ودولتها ، عاملون لمصلحة الدين والوطن ،  
لا لمصالحهم الشخصية .

وكانت هناك بقايا من أولئك الفرسان بعد ظهور الإسلام ،  
فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يصلح من نفوسهم ، ويسلك في هذا  
أدق العلاج لنفسه ، ومن ذلك أن أحدهم وفد عليه ، وهو زيد  
الخليل التيماني ، وكان فارسا شاعرا ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، ثم  
سماه زيد الخير بدل زيد الخليل ، ليقطع من نفسه ما يخرجه به اسمه



القديم ، ويترع منها حب تلك البطولة الشريفة ، وكان أيضا يؤلف  
من أسلم منهم بالمال لضعف إسلامهم بما كان من تغاليمهم في فسادهم ،  
وليحوض به ما أبطله من سبل عيشهم ، ثم وجه الشعر توجيها قويا  
يعد به عن التباهي بذلك الفساد ، ويكون التباهي فيه بالعمل النافع  
في الدنيا والآخرة إن صح التباهي به ، لأنه يجب أن يكون لوجه  
الله وحده ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن رواحة  
من شعراء الإسلام : « إن أباكم لا يقول الرفث ؛ وهو ابن رواحة »  
وكان مما قاله :

وفئنا رسول الله بطو كتابه

إذا انشق معروف من التجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا

به موفقات أن ما قال واقع

يبعث بحافى جنبه عن فرائه

إذا استنقلت بالكافرين المضايح

ومن لم يردعه منهم هذا العلاج النفسى عاجله بالقوة ، لينضجه لسلطان  
الحكومة التي أقامها الإسلام لهم ، حتى لا يكون هناك سلطان إلا  
سلطانها ، فيستقر الأمن في البلاد ، وتبطل غارات أولئك الفرسان ،  
ويوجه كل واحد إلى الكسب الحلال والعمل النافع .

وقد ظمت في الإسلام حروب ولكنها لم تكن كحروب أولئك  
الفرسان للسلب ، ولتباهي بها في الشعر ، ولكنها كانت حروب  
جيوش منظمة للدفاع عن دعوة الإسلام ، لا لثب المال والعدوان

على الآمنين ، وكان في هذه الجيوش فرسان شعراء ، وغير شعراء ،  
ولكن لم يكن لهم سلطان يعلو على سلطان غيرهم ، بل كانوا خاضعين  
لسلطان الحاكم الاسلامي ، يحاربون بأمره إذا شاء ، ويتبنون بنيته  
إذا شاء ، طاعة لاطفيان ، ونظام لافوضى ، وعفة لافخور ، وأمانة  
لا خيانة .

وكان فرسان الشعراء في الاسلام أشعار ، ولكن كانت أشعارا  
كرامة ، لا تغلب فيها الحقائق ، ولا تميل من الباطل حقاً ، ولا من  
الحق باطلاً ، ولا تعتمد على الشهرة وبعد الصيت وإنما تؤثر إنكار  
الفسس ، وتطلع إلى حسن الذكر في الدنيا والآخرة .

وكان عبد الله بن ربيعة الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم  
شعره بما سبق من الفرسان الشعراء ، وله موقف كريم في جيش  
مؤتة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم جعل زيد بن حارثة أميراً على  
هذا الجيش ، فإن قتل الأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن قتل الأمير  
عبد الله بن ربيعة ، فلما قتل الأميران أخذ عبد الله القواء ، وكان  
جيش الروم يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، فلم ينجح عن لغاتهم بعد  
قتل صاحبيه ، بل تقدم بالقواء وهو على فرسه ، ليحمل يستنزل نفسه  
ويطوعها للقتال ، ثم قال :

أقسمت يا نفس تنزلني

تنزلني أو تنسكركمه

لأن أجلب الناس وشدوا الرنة

مالي أراك تكرهين الجنة (١)

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع يشبه البكاء

قد طالما قد كنت مطبته  
هل أنت إلا نقطة في شئ (١)

ثم قال :

يا نفس إلا تفعلين شئ  
هذا حام الموت قد صليت  
وما تحيت فقد أعطيت  
لأت تفعلين فعلهما حديث (٢)

ثم تقدم فقاتل بجيشه القليل العدد جموع الروم الباقية أشعافه  
حتى قتل في سبيل الله تعالى ، وفي سبيل الذكرى الحسة في الدنيا  
والآخرة .

وليس في هذه الأبيات تفاخر بشجاعة ولا مباهاة من مباحات  
الفرسان الشعراء في الجاهلية ، وإنما هي نفس لم تطلع على حب القتال  
وسفك الدماء ، ولا تقاتل شهوة في القتال وسفك الدماء ، وإنما  
تكره على القتال لدفع العدوان عنها ، فتقاتل مضطرة ، ولا تقصد  
من القتال إلا رضا الله تعالى بالدفاع عن دينه .

وبهذا اخذت تلك الظاهرة الآتية بين الفرسان الشعراء في  
الاسلام على عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، فلما قامت دولة بني  
أمية وفرضت حكمها على المسلمين بالقوة ، عادت تلك الظاهرة الآتية  
إلى الظهور بين الفرسان الشعراء في الاسلام ، لأن الناس على دين

(١) الشدة : القرية القديمة .

(٢) شيخنا العلامة السيد جعفر الدين قزويني .

ملوكهم ، فإذا اعتمد ملوكهم في حكمهم على القوة اعتمدوا عليها  
أيضا فيما بينهم ، فظهر في أوائل عهد بني أمية بعض من الفرسان لشعراء  
الذين أعادوا عهد أسلافهم في الجاهلية ، من شن الغارات على القبائل  
للسلب والنهب ، والاختصار بها واللباس في أشعارهم ، ومنهم توبة  
صاحب ليلى الأخيلية .

وهو توبة بن الحسير - بطن الحاء وقصع المم وتشديد الياء  
الكنسورة - وكان يقيم في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وذكر  
أبو عبيدة أنه كان شريرا كثير الغارة على بني الحارث بن كعب ويختمهم  
وهمدان ، فكان يزور نساء متهن يتحدث إليهن ويأمر معهن ، ومن  
شعره في ذلك :

أذهب ريعان الشباب ولم أزد

غرائر من همدان أيضا نحووها

وكان ريعا ارتفع إلى بلاد ميرة فيغير عليهم ، وبين بلاد ميرة وبلاد  
قومه بني عقيل مفازة منكزة لا يقطعها الطير ، فيحمل مزاد الماء  
فيدفن منه على مسيرة كل يوم مائة ، ثم يغير عليهم فيطلبونه  
فيركب بهم القفازة ، وإنما كان يسمد حارة القنيط وشدة الحر ،  
فإذا ركب القفازة رجعوا عنه .

وكان توبة يبعث ليلى الأخيلية ، وهي من قومه بني عقيل ،  
فقال لها الشعر ، وخطبها إلى أبيها فأبى وزوجها لغيره ، فلم يقطع  
عن عشقها وزيارتها في غيبة زوجها ، فعاتبه أخوها وأهلها فلم يسمع  
لهم ، فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه إن أنام ، وعلت ليلى بذلك

وجاءها زوجها وكان غيورا ، خلف : لئى تعلمه بجيئه ليقتلها ولئى  
أثذره بذلك ليقتلها ، فرصدته في الموضع الذي يجيئها منه ، ورسدوه  
بموضع آخر ، فلما أقبل لم تقدر على كلامه لليمين الذي حلفته ،  
فسفرت وألقت برقعها عن رأسها ، فلما رأى ذلك أنكره وركب  
راحلته ومعنى فقام . وقال في ذلك قصيدته :

ثأثك بليلى دارها لا تزورها

وشطت نواها واستمر صبرها<sup>(١)</sup>

وهي طويلة يقول فيها :

وكنت إذا ما جئت ليلي تيرفت

فقد راجي منها القداة سقورها

فكان بعد هذا يرأسها وترأسه ، وقد وجه يوما صاحبها له إلى

حاضرها ، وقال له : إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعل

شرقا ثم أعنف بهذا البيت :

عفا الله عنها حل أيمن ليلة

من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فلما عتف بذلك عرفت المعنى ففالت له :

ومعه عفا ربي وأحسن حاله

عزز عيشتا حاجة لا يخالها

ثم وقعت متافرة بينه وبين السليل بن ثور بن أبي سمعان بن عامر

ابن عوف بن عقيل ، وكان شريرا ونظيره في القسوة واليأس ،

(١) استمر صبرها : البربر العزبة وما تشد منه من الجبال ، واستمر اشتد .

فواعد كل منهما صاحبه ، والتقى بعد هذا على غدير من ماء السماء ؛  
فرض توبة السليل فقتله (١) ثم أثار توبة ثانية على إيل بن السميع  
ابن كعب بن عوف بن عقيل فأطردها ، وكان معه أخوه عبد الله  
ورجل يقال له قابض من بني كلاب ، ثم سار بالليل إلى عبد العزيز  
ابن زرارة من بني كلاب ليتركها عنده . فخرج ابن عم السليل بن  
نور المقتول إلى قومه فركبوا في طلبه فأدركوه قبل أن يصل إلى  
عبد العزيز بن زرارة فقتلوه وقطعوا رجل أخيه عبد الله . ففر  
قابض إلى عبد العزيز وقال له : قتل توبة . فنادى في قومه فجاءه  
أبوه زرارة فقال : أين تريد ؟ فقال : قتل توبة . فقال له : سحقا  
لك . أنت طلبت بدم توبة أن تقتله بنو عقيل ظالما لها . ياغيا عاديا عليها .  
قال : لكنني أجهنم إذن . قال أبوه : أما هذه فنعيم . فألقى السلاح  
وانطلق حتى أجهنم وحمل أخاه عبد الله إلى قومه .

نعم قتل توبة كما قال زرارة ظالما ياغيا ، وهي كلمة حق كان  
من الواجب أن يقال في عهد غلب فيه الشر على الخير ، ولكن كيف  
لنبي الأخيلية أن تعرف هذا وكان بينها وبين توبة ذلك الحب ،  
والحب يعنى وبهم ؟ لما أن بلغها قتله حتى أخذت تربيته وبنيته  
بكاء الأبطال وتصوره في رثائها صورة عظيم الرجال ، وكانت تفتد  
على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وعلى الحجاج بن يوسف  
وتفاخر به عندهم ، فيرضون عن مفاخرتها به ويميزونها عليه ، لها  
لهم من الأرب السياسية في عودة القبائل العربية بعد إسلامها كما كانت  
(١) الرواية في هذا منطوية . فرة تذكر السليل في هذا ، ومرة تذكر أبا  
نورا وأنه هو الذي أخذ ثأره .

عليه في جاهليتها وهذا إلى شيء من العنجهية العربية كان عندهم ولم يقطع الإسلام جذوره من قلوبهم .

ومن هذا أنها وجدت على معاوية فقال لها : ويحك يا ليل ، أكا يقول الناس كان نوبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ليس كل ما يقول الناس حقا ، والناس شجرة ينشأ بمعدون أهل النعم حيث كانت وعلى من كانت ، ولقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان ، حديد اللسان ، شجاعاً للأكران ، كريم القبر ، عفيف للثر ، جميل المنظر ، وهو يا أمير المؤمنين كما قلت ، ولم أتعد الحق وعلمى فيه :

بعيد الرئى لا يبلغ القوم قعره      أنه ملد يقلب الحق باطله (١)  
إذا حل ركب في جاء وظله      ليمتعهم عما تخاف نوازله  
جامع ينصل السيف من كل فادح      يخافونه حتى تموت خصائله (٢)

فقال لها : ويحك ، يزعم الناس أنه كان عامراً خارباً . ففأت من ساعتها :

معان لمى كان والله سيداً      جواداً على العلات جا نواقله (٣)  
عقيفا بعيد الهم عدواً قتاته      جميلاً عبياء قتيلاً نواقله  
بيت قرير العين من بات جاره      ويضعى بخير ضيفه ومنازله

(١) أنه : تعيد المصنوعة لأزيد إلى الحق من له اللان ، ولقد أسم فاعل من أنه يعي تعيد المصنوعة على التأكيد .

(٢) خصائله : جمع خصبة وهي كل طعة بها عصب .

(٣) العلات جمع علة وهي المحدث يشغل سائبه .

فقال لها: ويحك يا ليلى، لقد جرت جوبة قدره . فقالت : والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أى مقصرة في نعمته ، وإنى لا أبلغ كنه ما هو أهله . فأمر لها بمائة عظيمة ، وكان في به قد اقتنع برأيها فيه ، مع أنه كان يكتفيه قولها فيه . الحمد لك بطلب الحق بطله . لأن هذا ليس من الإسلام في شيء .

و كذلك وفدت على الحجاج بن يوسف فمدحه لأخذ جوازاً . فلما دخلت عليه قال لها : كيف خلفت قومك ؟ قالت : تركتهم في حال خصب وأمن ودعة ، أما الخصب في الأموال والكلال ، وأما الأمن فقد أمنهم الله عز وجل بك ، وأما الدعة فقد غامرهم من خوفك ما أصلح بينهم . ثم قالت : ألا أنشدك . فقال لها : إذا شئت فقالت :

أحجاج لا يفل سلاحك إنما الـ  
منايا يكف الله حيث يراها  
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة  
تبع أقصى دائها فسقاها  
شفاها من الداء العضال الذي بها  
سلام إذا عز القضاة سقاها (١)  
سقاها دماء المارقين وعلها  
إذا جمعت يوماً وخيف أذاها (٢)

(١) القنطرة : الرمح .

(٢) علها : سقاها ثانية



فقال قالت - غلام إذا هو الغناء سقاما - قال : لا تقولي غلام ،  
فولي حمام . وقالت أيضا في مدحه :

حجاج أنت الذي لا فوقه أحد  
إلا الخليفة والمستنفر الصمد

حجاج أنت ستان الحرب إن نهجت  
وأنت قتاس في المايجي لنا نقد (١)

فقال لها : أنشدتينا ما قلت في توبة . فأنشدته قولها :

فإن تكن الفتى يواء فإنكم

ففي ما قتلتم آل عوف بن عامر (٢)

ففي كان أحيا من فتاة حبية

وأشجع من ليث بخان خادر (٣)

فصم الفتى إن كان توبة فاجرا

وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

فقال لها أسماء بن خارجة الخزاري : أيتها المرأة . إنك لتصفين هذا  
الرجل بشيء ما تعرفه العرب فيه . فقالت : أيتها الرجل . هل رأيت  
توبة قط ؟ قال : لا . فقالت : أما والله لو رأيته لوددت أن كل  
عاقق في بيتك سامل منه . فكأنما أقي في وجه أسماء حب الرمان  
حين سمع هذا . فقال له الحجاج : وما كان لك ولها . ثم أجزل  
صحتها .

(١) ستان الحرب : ومها ، ونقد : تلى أي ظهر ما خلفي من الأمور .

(٢) يواء : دماؤها متساوية .

(٣) خفان : مأسدة ، وخادر : عتيق في حربته .

وهكذا وجدها الحجاج ترفعه في مدحها حتى يجعله في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وخليفة نبي أمية . وتنسب علماء الأمة وصلحاءها من كانوا لا يرشون عليها ولا عن توبة ولا عن الحجاج . فلم يجد إلا أن ينصرها على أسماء بن خارجة حين أبدي رأيه في توبة ولم يرض في أدب عن تجاوزها الحد في أمره . فاستمعته من قولها القاحش ما استمعته .

وكذلك وفدت على عبد الملك بن مروان فدخلت أولا على زوجته عائكة بنت يزيد بن معاوية . فدخل عبد الملك على زوجته فرأها وكانت امرأة بدوية فأنكرها وقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الوالدة الحرمي ليلي الأخيلية . فقال لها : أنت التي تقولين : أريقت جفان ابن الخليل فأصيبت

حياض التدي زلت من المراتب<sup>(١)</sup>

فجالت : أنا الذي أقول ذلك . فقال : فما أبقيت لنا ؟ قالت : الذي أبقاه الله لك . قال : وما ذاك ؟ قالت : نسبا قرشيا . وميثا رخيا . وإسرة مطاعة . فقال : أفردته بالكرم . فقالت أفردته بما أفردته الله به .

فقالت عائكة : إنها قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها ونحميمها لها . ولست أبزدد إن شئتم في شيء حاجتها فتقدمها أعزأيا جلنا على أمير المؤمنين .

(١) الخليل هو كعب بن ربيعة بن حنبل من آباء توبة .

فوثبت ليلى فقامت على رجلها غاضبة لقولها - أعرابيا جلقا -  
واندفعت تقول :

ستحملني ورحلي ذات رخذ

عليها بنت آباء كرام<sup>(١)</sup>

إذا جعلت سواد الشام جنيا

وغلق دونها باب القسام

فليس بعائد أبدا إليهم

ذوو الحمايات في نلس الظلام

أعانك لو رأيت غداة بنا

عزاء النفس عنكم واعتراي

إنن لعلت واستيقنت أني

مشيتة ولم ترعى زماي

أأجعل مثل توبة في نداء

أيا الديان قوة الفجر دام<sup>(٢)</sup>

معاذ الله ما عشت برحلي

تفد السير للبد النهای<sup>(٣)</sup>

أقلت خليفة فواء أحجي

بأسرته وأولي بالقسام<sup>(٤)</sup>

(١) وغدا سير سرج.

(٢) أيا الديان كناية عبد الله لأن الديان كانت نهايت على فيه لما ذكرت.

(٣) تفد السير : تسرهه ، والد النهای مكة .

(٤) ثم الرجل والتم شد القسام على أنه لو قد تمى تمام الله كما ذكرت في البيت بعده .

ثم الملك حين تعد بكر  
ذوو الأخطار والخطى المسام<sup>(١)</sup>

وكل من عبد الملك ولبى منحرف في هذا عن الجادة ، وكل منهما لم  
يشب له أو لصق حين غضب ، فهو قد غضب عليها لأنها أقرت  
توبة بالسكرم ولم تبق له وهو الملك الذي لا يذكر توبة بجانيه شيئا  
ولو أنها لم تفرده بالسكرم لسكان رأيه فيه مثل رأيها ، وهي لم  
تغضب إلا لأن عائسها جعلت توبة أعرايا جلتا ، ولو أنها لم تقل  
هذا فيه لم يكن عبد الملك أبا الذان ، بل كان في الثرة عندها بعد  
الله تعالى ، كما قالت في مدح الحجاج :

حجاج أنت الذي لا فوقه أحد

إلا الخليفة والسفخر الصمد

وكل هذا الإطراء نأتى به في توبة الذي كان يشقها ، وكان  
زوجها لا يزال حيا ، ولم تزل مصرة عليه إلى أن واثقا منيتها ،  
وبروى في موتها أنها أقبلت من سفر فمرت بغيره كوعها زوجها وهي  
في هودج لها ، فقالت : والله لا أبرح حتى أسلم على توبة . فبعل  
زوجها ينمها من ذلك وتأتي إلا أن لم به ، فلما كثر ذلك منها تركها  
فصعدت أكمة عليها قمره ، فقالت : للسلام عليك يا توبة . ثم حوت  
وجها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا . فقالوا :  
وكيف ؟ قالت : أهنس القائل :

(١) الخطى النسب إلى بلد الخط بتعريف الياء لضرورة الشعر ، والمسام  
الفاصل ، ومنه تحريف عن الخط المسام ، وفي بعض الروايات : حين تمسكيب .

ولو أن ليلى الأخيلية سالت  
 على وددي جندل وصفائح<sup>(١)</sup>  
 لسلت تسلیم الشاشة أوزقا  
 إليها صدى من جانب القبر صائح<sup>(٢)</sup>  
 وأعبط من ليلى عما لا أناله  
 ألا كل ما فرث به العین صالح  
 فما باله لم يسلم على كما قال ؟  
 وكانت إلى جانب القبر يومه كاهنة ، فلما رأته البودج  
 واضطرابه فزعته وطارت في وجه الجمل ، ففقر فرى ليلى على  
 رأسها فانت من وقتها . فدفنوها إلى جنبه ، وقد ذكر صاحب  
 الأغانى أن هذا هو الصحيح في خبر موتها .

(١) الجندل : الصخر العظيم . والصفائح جمع صفيحة وهو الحجر العريض .

(٢) زفا الطائر صائح ، والصدى نوع من النجوم عظيم الرأس أيضا دوت أوار  
 رأسه نوى . وهو يأوي إلى الأماكن الخفية المظلمة ، ويسمى أيضا الهامة وكانوا  
 يزعمون أنه يخرج من رأس المتبول ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يمتد تأواه

### قصة سعد وسعاد

كان سعد فتي من بني عذرة عشق بنت عمه سعاد ، وكانت من  
البرزات في الجمال واللباء ، وله معها قصة قد تكون صحيحة  
وقد تكون موضوعة ، فمثل هذا قيل في قصة المجنون وليلى ، ولكنه  
تزوجها ولم يمنع منها كما منع المجنون من ليلاه ، وكان له مال فيعمل  
بتفقه عليها حتى قد ، فلما صجر عن الاتحاق عليها أراد أبوها أن  
يطلقها منه فأبى ، فشكاه إلى والد عليم من قبل معاوية بن أبي سفيان  
فصبغته وضيق عليه السجن والقيود حتى طلقها كارها ، فدفع إلى  
أبها عشرة آلاف درهم وتزوج بها ، فذهب سعد إلى معاوية يشكوه  
إليه ، وكان معاوية يجلس كل يوم لسباع شكوى الناس ، فدخل  
عليه في جمع وأخسده مجلسه فيمن جلس أمامه للشكوى ، ثم قام  
فأنشد :

معاوي إذا الحلم والفضل والعقل

وذا القير والإحسان والجلود والبذل

أنتك لما ضاقت في الأرض مسلكت

وأنسكورت بما قد أصيب به عظمي

ففرج لك الله عنى فاني

لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي

- وخذلي هذاك الله حي من الذي  
 رماني بسهم كانت أخته قتل  
 وكنت أرجى عدله إذ أتيت  
 فأكثر ترددي مع الحس والكيل  
 فطلقها من جود ما قد أصابني  
 فهذا أسير المؤمنين من العدل (١)  
 فاستداه معاوية منه وقال له : ما شأنك ؟ فذكر له قصة وأليه  
 معه ، فكتب معاوية إليه بلفظ عليه وبأمره بالتخلي عنها ، ويقول  
 في آخر الكتاب  
 ركت ذنبا عظيما لست أعرفه  
 فاستغفر الله من جور امرئ ذاني  
 قد كنت تشبه صوفيا له كتب  
 من الفرائض أو آيات قرأت  
 طلق سعد وطارقها بمجتمع  
 وأشد على ذلك نصر ابن عليان  
 فطلقها وأرسلها إليه فقبل إن الناس تعجبوا من حسنيتها ، وقالوا  
 هذه لا تصلح لأعرابي ، إنما تكون لأمر المؤمنين .  
 فعجب معاوية منها حين رآها ، ثم استطلقها فإذا هي فتنة ، فقال  
 لآلئ عنها سعد : هل لك في عوض عنها ؟ قال : نعم إذا بان رأسي  
 عن بدني . ثم أئسد :

(١) هذا منه على سبيل الاستعظام لا الكبر ، أي أنه ليس من العدل .

لا تجمعتني والأمثال تضررت في  
 كالمنجبر من الرمضاء بالنار  
 -  
 اردد سعاد على حران مكتتب  
 عيسى ويصبح في م وتذكرك  
 قبل : ففضيب معاوية من ذلك ، وخيرها بينه وبين واليه وابنهما ،  
 فأنشئت :  
 هذا وإن أصبح في أطمار  
 وكان في نقص من اليسار  
 أكبر عندي من أبي وجاري  
 وصاحب الدرهم والدينار  
 فقال معاوية : خذها لبارك الله لك فيها . وأمر أن تقيم إلى  
 تمام العدة ، فلما انقضت دفعها إليه مع مائة وعشرة آلاف دينار .  
 وكان للأستاذ علي المنبدي مقال في هذه القصة نشره في مجلة  
 الرسالة ، وقد وجد فيها عجالا واسعا لتحدث عن البدو في حجم  
 وعنفهم وزواجهم وعاداتهم ، ولم يقتصر فيها على حوادثها بل كان  
 لخيال حقل عظيم في مقاله ، ولسكنه فيها ذكر خيال يساهم الحقيقة  
 في الصدق ، لأنه يكنى عليها ويبتنى منها ، وإن كان قد توسع في  
 بعض الوقوف فأطلق سدا شعرا لم يقله ، لأن المقام يحتم ذلك ،  
 وأدب القصة بفتح هذا التوسع .  
 فقلت نظري ما ذكره في مقاله من أن والي معاوية الذي اغتصب



سعاد من سعد هو مروان بن الحكم كما لفته أيضا هذا البيت :

قد كنت تشبه صوفيا له كتب

من الفرائض أو آيات قرآن

لأن مروان بن الحكم لم يكن رجلا مفتونا مدلا بنفسه كما ذكر  
الأستاذ الجندى ، بل كان رجلا كبيرا يطمح إلى ما يطمح إليه  
كبار الرجال ، ولا يصح أن يقع في مثل تلك الصفات ، وكان ذا  
عقل ودعاء وسياسة ، وقد اشتغل بالسياسة العالية من شبابه إلى  
كبره ، فكان مشير عثمان بن عفان ووزيره في خلافته وكان ندا  
في السياسة لأمثال علي بن أبي طالب والزيد بن العوام وطلحة  
ابن عبيد الله ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم ، ولم يزل يطمح إلى أبعد  
الغايات ، ويعمل على أن يظهر تلك المسلمين ، حتى وصل إلى ما كان  
يطمح إليه من ذلك ، وكان التأسيس الثاني لدولة بني أمية ، لأنها  
كادت تذهب بعد موت معاوية وابنه يزيد ، حتى أنها لم يبق لها إلا  
ملك الشام وما إليه ، فلم يزل يقاوم عبد الله بن الزبير هو وابنه  
عبد الملك من بعده ، حتى أعاد الدولة الأموية إلى مثل ما كانت  
عليه ، فكانت هي الدولة الإسلامية الوحيدة إلى أن تغلبت عليها  
الدولة العباسية ، فالتحصر ملكها في بلاد الأندلس ، وكان لها  
فيها ملك يسامي عظمت ملك الدولة العباسية في المشرق ، فمثل هذا  
الرجل الكبير لا يصح أن يقع في الصغيرة السابقة التي وردت بك  
القصة ، وله مكانة وزعامته في بني أمية ، ولا يصح أن يظهر  
قبلا يظهر الرأى الدليل لمعاوية ، وهو الذي كانت يساميه في نسيبه

وزعامته تلك الأسرة الحاكمة من قريش ، ولهذا كان معاوية يلاينه ويداربه ، حتى إنه كما لابد منه كتب إليه بأمره يأخذ البيعة له على أهل المدينة ، فأبى هذا عليه وأباه أهل المدينة معه ، ثم ذهب إليه مخاضيا في نفر من أهل بيته ، وأنكر عليه خروجه على ما سار عليه الخلفاء قبله من جعل ذلك الأمر شورى بين المسلمين ، وتأمره للصبيان عليهم ، فأمر معاوية أمره ، واشترى رضا بالمال ، ففرض له ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة ، وليسكن بعد هذا مروان ما يكون ، لأن استكثر هذا عليه لأنه كان رجلا مائلا بشيء عن الظلم .

وقد حلى استبعادى لوقوع هذا من مروان بن الحسك على مراجعة القصة في مقامها ، فرجعت إليها في كتاب - تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق - فشيخ الضرير الفيلسوف داود الأنطاكي الطيب المعروف ، وصاحب التذكرة المشهورة في الطب ، فوجدته يذكر أن سعدا لما ألقى دفع أبوها أمره إلى ابن أم الحسك ، ففعل معه ما فعل مما سبق ، لا إلى مروان بن الحسك .

وهذا عندى هو الحق في تلك القصة إن كانت صحيحة وبإين أم الحسك هو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ، اشتهر بكنيته للسوب فيها إلى أمه أم الحسك بنت أبي سفيان بن حرب ، وكان خاله معاوية يوليه بعض أعماله في قيسية السيرة فيها ، فثله هو الذي يلحق أن ينسب إليه الصغيرة السابقة في تلك القصة لامروان بن الحسك

ولأنى أدرج أن الرواية التي ورد فيها اسمه نشأت عن الاشتباه بين  
الاسمين ، وللعقول في هذا أن يشذبه اسم ابن أم الحكم بمروان  
ابن الحكم ؛ لأن الثاني أشهر من الأول ؛ فمن القريب جدا أن  
يكون بعض الرواة أو النساخ أبدل الثاني بالاول ؛ لأنه لم يسمع  
إلا به ؛ لشهرته بين ملوك بني أمية .

وأما البيت السابق فوضعه في تلك القصة طاهر كل الظهور ، لأن  
نظام التصوف لم يكن قد حدث في عصر معاوية ، ولم يكن فيه  
كتب صوفية يحملها المتصوف ، وهي كتب الأوراد ونحوها مما  
يفرضه المتصوف على نفسه ، وقد قيل إن السكيب في البيت جمع كتاب  
بمعنى مكتوب أي مفروض ، فيكون المعنى له مفروضات من  
القرائض ؛ أي مما فرضه على نفسه من الأوراد ونحوها ؛ ولا شك  
أن حل السكيب على هذا بعيد ؛ على أنه لو صح فإنه يبقى أن هذا  
النظام من التصوف لم يكن معروفا في عصر معاوية ، بل لم يكن  
معروفا فيه اسم المتصوف وما اشتق منه .

ويمكن أن يصح هذا البيت على وضع تلك القصة ، ومثله بقية  
اشعارها الركيكة ؛ لأنها ليست في درجة شعر هذا العصر على إطلاقه  
ولا في درجة الشعر المذرى الذي ينسب فيه إلى جميل بثينة وكثير  
عزة وجميل ليلى ونحوهم .

على أن الرواية التي صححتها في نسبة الصغيرة السابقة إلى ابن  
أم الحكم لا إلى مروان بن الحكم ؛ قد نسبت إلى معاوية بن أبي  
سفيان بخلافه الواقع فيها ، وهو أكثر أبطا من أن يقع في ذلك

فهيكون هذه القصة ضعيفة في سبكها وشعرها ، ويكون في هذا  
مافيه من الدلالة على وضعها ؛ والظاهر أنها موضوعة في عصر متأخر  
من العصور التي اشتهر فيها وضع أمثال تلك الروايات ، وإن كانت  
لا تنزل إلى درجة العامية التي نزلت إليه تلك الروايات في هذه  
العصور ، والله أعلم .



## فهرس الكتاب

المقدمة	١
خطبة الكتاب	٢
مقدمة أبي تمام	٣
٥ - خصائص مدرسة أبي تمام	
١٣ - أولى شعراء هذه المدرسة بالزمام	
١٥ - أبو تمام	
١٥ - نسيه ومولده - ١٦ - نشأته وسيرته	
٢٠ - منزله في الشعر - ٢٣ - مختارات من شعره	
٢٥ - وصية أبي تمام للبحري	
٢٨ - البحري	
٢٨ - نسيه ومولده - نشأته وسيرته	
٣٣ - منزله في الشعر - ٣٦ - مختارات من شعره	
٤٠ - ابن المعتز	
٤٠ - نسيه ومولده - نشأته وسيرته	
٤٣ - منزله في الشعر - ٤٥ - مختارات من شعره	

- ٥٦ - الشريف الرضي .
- ٥٦ - نسب ومولد - نشأته وسيرته
- ٥٨ - منزله في الشعر - ٥٨ - غارات من شعره
- ٧٨ - أبو العلاء المعري .
- ٧٨ - نسب ومولد - نشأته وسيرته
- ٧٩ - منزله في الشعراء - ٨٢ - عقيدته الأدبية
- ٨٤ - غارات في شعره - ٩١ - موازنة بين أبي العلاء والمعتز
- ٩٣ - ملحق بالكتاب .
- ٩٣ - الفرسان الشعراء في الجاهلية والإسلام
- ١١٧ - قصة سعد وسعد .

## للمؤلف

١ — مختارات الشعر الجاهلي  
بحقيق وشرح فضيلته

التمن ٣٠ قرشاً

٢ — تاريخ الإصلاح في الأزهر  
وصفحات من الجهاد في الإصلاح

التمن ١٠ قرشاً

٣ — بسط سماع المسامر  
الرواية الصحيحة لهـوان بنون ليلى لابن طولون  
بحقيق وشرح فضيلته

—————

٤ — الوسيط :

في تاريخ الفلسفة الإسلامية



